الرحلة

أيام طالبة مصرية في أمريكا



رضوى عاشور

رضوى عاشُور

الرحلة

أيام طالبة مصرية في أمريكا

فهرس

١

غادرت القاهرة فجـر ٣٠ أغسـطس ١٩٧٣. قبلـت مودعي ودخلت إلى المنطقة الجمركية حاملة حقيبة زرقـاء كبيرة بها ملابسي وبعض الكتب، وحقيبة يد صغيرة أودعتها جواز سفري المصري الأخضر وبطاقة الطـائرة ومحفظـة جلدية بها نقود وبضع صور عائلية. صورة صغيرة رسـمها صلاح جاهين وصارت أغنية نردد فيها مع كورس الأطفال المصاحب للمغني « صورة، صورة، صورة، / كلنـا كـده عاوزين صورة / صوره للشعب الفرحان / تحـت الرايـة المنصورة! » ولما كان السؤال قائما – ساعتها كمـا الآن – إن كان من الممكن أن نجلس في هذا الجيل أمام الزمان لكي يلتقط لنا صورة تحت الراية المنصورة، فلقـد أبقيـت هـذه الصورة المغناة جميلة ومصقولة مع تلـك الأخـرى التـي استلمناها عقب حرب الأيام الستة، محروقة كأنها تعكس مـا أصابنا من تفحم في الحريق. ومـع الصـورتين احتفظـت بصورة ثالثة، عائلية أيضا، يتصدرها أبي حاضرا وعنيـدا، موزعا بين رغبته في أن يطلقني في الأرض امتدادا لفـورة

حياة من صلبه ومخاوف مسلم ريفي الجذور يريـد للبنـت الستر، وأمي في الخلفية، وأخواتي مقبلون، وأنا أتساءل.

ولم أكن أحمل معي صورة ذلك الشيخ المعمم ذي الوجه الوسيم، ولكن المؤكد أنه كان هناك في مكان ما من وعيي لو أنني توقفت لأدقق. كرفاعة كنت في طريقي إلى بلاد « بعيدة عنا غاية الابتعاد » لتحصيل المعارف، ولكني لم أكن مثلـه ذاهبة بحياد من لا يعرف شيئا مما هو مقبل عليه، ولا كنت مثل أجيال لحقته من مبعوثين راحوا وعادوا مـدلهين فـي عشق الأنوار الإمبريالية.

أعادت لي الموظفة الجواز وبطاقـة السـفر فلوحـت لمودعي مرة أخيرة واتجهت إلى قاعـة المسـافرين حيـث جلست على مقعد جلدي أسود كبير في انتظار الإعلان عـن موعد الإقلاع، وألم ملعون في سني لازمني طوال الساعات الأخيرة يزداد إلحاحا ويتحول إلى صداع.

في أي عام التقطت لنا هذه الصورة العائلية، في عـام ١٩٦٢ أم في مطلع العام التالي؟ أذكـر أننـا جلسـنا أمـام المصور في الأسبوع نفسه الذي شاهدت فيه جميلة بو حريد في جامعة القاهرة. وكانت المرة الأولى التي أدخل فيها إلـى

الحرم الجامعي، فاجأتني أنوار قاعة الاحتفالات، بدت لي في تلألئها كعروس مجلوة. ذهبنا في أتوبيس المدرسـة برفقـة معلمتين ثم طلعت جميلة علينا، امرأة نحيلة وصـغيرة فـي ثوب بسيط على خلفية من أخضر وأبيض يلتقيان فـي خـط يعلوه هلال أحمر، علم الجزائر خلفها، ونحن نهتف، والمرأة الصغيرة تتحدث ويأتيني حديثها كعلامة على طريق السلامة. « هل أنصفت في قراري بالسفر؟ » هذا الألم الملعون بسني لا أعرف كيف أتخلص منه. يعلنون عن قيام الرحلة. أجلس في الطائرة وأربط الحزام استعدادا للإقلاع. أنظر من النافذة إلى البنفسج الذي يغشى السماء والأرض وأفكر أنه في تلـك الساعة البنفسجية نفسها قبل عام وسبعة أشهر، كانت قـوات الأمن تقتاد آلاف الطلاب المعتصـمين مـن داخـل قاعـة الاحتفالات بالجامعة إلى الاعتقال. خرجـوا فـي صـفوف منتظمة يغنون « بلادي بلادي »، وفي ساعة كهذه أيضا من يوم آخر كنا نقف، شابان وأنا، أمام الموظف المسئول بمكتب البريد المركزي بشارع عدلي لكي نرسل برقيات إلى رئيس الجمهورية ورئيس مجلس الشعب ورئيس الوزراء احتجاجـا على اعتقال الطلاب، باسم لجنة للكتاب والفنانين المصريين.

هذا البنفسج في الفجر ناعم وحزين. ما الذي يحملني على السفر؟ أحدق من النافذة فيتراءى لي فريد جميلا يبتسم ابتسامة مشجعة وعيناه خائفتان. يشتد الألم في أسناني وتقلع الطائرة.

- طلاب الجامعة ينتظرون للمحطة القادمة.

أعلن السائق وهو يوشك على الوقوف في محطة البلدة. نزل الركاب جميعا عداي، وشاب يجلس بجوار النافذة في الجناح المقابل. وحين توقف الأتوبيس ثانية في محطته الأخيرة داخل الحرم الجامعي نزلت منه والشاب من ورائي، ثم رأيت فتاة ذات حاجبين كثيفين لا بد أنها كانت تجلس خلفي لأني لم ألحظها قبل ذلك. سلمنا السائق حقائبنا ورحت أجول ببصري في المكان لعلي أهتدي إلى الخطوة التالية. كان الشاب والفتاة قد بدآ يتبادلان الحديث بلغة أوربية لا أعرفها، اقتربت منهما وسألتهما بالإنجليزية إن كانا طالبين جديدين، ولما ردا بالإيجاب حملت حقيبتي وسرت بجوارهما. وضعنا أمتعتنا في مقر اتحاد الطلاب ثم اتجهنا إلى مبنى الإدارة الذي وصفوه لنا. نسينا أن نتعارف، فكرت، أبطأت خطواتي، قلت:

- أنا من مصر، اسمي رضوى عاشور.

كانت الفتاة بولندية، وقال الشاب إنه إسرائيلي. فاجـأني الأمر ولم أقل شيئا. وصلنا إلـى مكتـب الطلبـة الأجانـب فجلست على كرسي وحدي في الطرف المقابل. حين انتهت الفتاة والشاب من الحديث مع مسئول المكتب توجهـت إليـه لأسأله، قال مشيرا إليهما:

- إنهما ذاهبان إلى بـرينس هـاوس، مسـكن طـلاب الدراسات العليا. لقد وصفت لهما الطريـق، وسـوف ألحق بكم هناك بعد الظهر.

وأعطاني ملفا به خريطة للجامعة وعدد من الكتيبات بها معلومات عن بلدة أمهرست وجامعة ماساشوستس والجامعات المجاورة لها.

عدنا إلى مبنى اتحاد الطلاب لأخذ أمتعتنا، ثم توجهنـا للبحث عن برينس هاوس. سرت أتشاغل بالحقيبـة وثقلهـا، يفصلني عن تريزا البولندية التي راحت تثرثر مـع الشـاب مسافة تكفي لشخصين أو ثلاثة. وأخيرا وجدنا البيت ولكننـا أخذنا ندور حوله لا نعرف من أين الدخول إليه، وكلما ظننا أننا عثرنا على المدخل وجدنا بابا مغلقا. كنا في اليوم الأخير

من شهر أغسطس والجو حار رطب وخانق، رحت أتصبب عرقا وأنقل حقيبة السفر الثقيلة من يد لأخرى. وأخيرا اهتدينا إلى المدخل.

قالت مديرة البيت أن ليس لي مكان لأنني لـم أرسـل طلبا مسبقا. وإن علي أن أتدبر أمري لليلة أو ليلتين في مكان آخر. وحين وصول مسئول مكتب الطلبة الأجانب حملني في سيارته إلى بيت آخر من بيوت الطلاب لإيجاد حجرة أقضي بها الليلة. كان الشاب دون الثلاثين، ودودا ومهـذبا، شـديد العناية بملبسه حتى أنه بدا كموظف بريطاني يعمـل بـإدارة إحدى المستعمرات الإمبراطورية في بدايات القرن. شـعره الأشقر الناعم مفروق من الجانب بعناية، متـورد الـوجنتين لامع الحذاء، يلبس رابطة عنق وسترة، ويتحـدث بصـوت نحاسي بطيء، مؤكدا على مخارج الألفاظ كأنه يقدم برنامجا إذاعيا لتعليم اللغة الإنجليزية. كانت هيئته غريبة بين الطلاب الذي يلبسون الشورت والبنطلونات الجينز الكالحة. ويطلقون شعورهم بلا عناية وتغلب عليهم الهيئة الهيبية. سألته لقطـع الصمت:

- هل زرت مصر أو أيا من البلدان المجاورة؟

- لا، ولكني قضيت عدة سنوات خدمة في الهند الصينية.

لم أقتنع في حياتي بأن السكوت من ذهب كما اقتنعـت تلك اللحظة. وبدا لي أنني لو فتحت فمي مرة أخرى فسوف يسترسل ليقول لي إنه كان مجندا في فيتنـام حـاملا لـواء الديمقراطية في أدغال آسيا. أول القصيدة كفـر. أصـطبح بإسرائيلي وأتمسى بهذا الشاب اللامع الذي قضـى « عـدة سنوات خدمة في الهند الصينية ».. ما الذي أتى بي إلى هنا؟

كان لقائي الأول برئيس قسـم الدراسـات الأفـرو – أمريكية الذي كنت قد تراسلت معه بشأن مشروعي الدراسي طريفا وقد أحاطت به كل ملابسات المفارقة المضحكة. لـم أكن قد أتيت إلى الولايات المتحدة رغبة في الدراسـة فيهـا عموما ولكن لاهتمامي بموضوع بعينه هو الأدب الأمريكـي الأسود الذي أردت أن أقدم فيه رسـالتي للـدكتوراه. وفـي القاهرة أشارت علي السيدة شيرلي جراهـام ديبـوا الكاتبـة الأمريكية السوداء وأرملة الزعيم الكبير الذي تحمل اسمه أن أتقدم بطلب الالتحاق بهذا القسم بالذات لثقتهـا فـي التوجـه التحرري لإدارته وهيئة تدريسه. وحملت لـي مـدام ديبـوا بنفسها استمارات الجامعة وزكتني للحصول على منحة مـن

القسم، قائلة إنني باحثة مصرية جادة أعمل بالتـدريس فـي جامعة عين شمس، وإنني كاتبة تقدمية. وقالت لي صـديقتي التي تجاوزت الستين إن رئيس القسم صديقها وإنني سـوف أسعد بلقائه لتميزه الإنساني والعلمي.

هكذا رحت أفكر وأنا جالسة في انتظار صديق صديقتي العجوز إذا ما كان الرجل مثلها علـى مشـارف السـبعين، وأتساءل إن كان هناك سن للتقاعد لأساتذة الجامعة في هـذا البلد.

- ها هو قد جاء.

قال وكيل القسم الذي كنت أنتظر بغرفته. قدمه لي ثم:

- السيدة رضوى عاشور.

مددت يدي لمصافحة شاب فارع الطول له لحية كلحيـة هوشي منه، شعره منفوش في اتساق على الطريقة الأفـرو، يلبس قميصا إفريقيا واسعا ذا ألوان زاهية، يتدلى من رقبتـه عقد من العاج في نهايته قناع إفريقي صغير من العاج أيضا. بشرته قمحية، مثلي، وله عينان واسعتان برمـوش طويلـة يميل إلى إغلاقهما وهو يتحدث كأنه لا يريد أن يرى – أثناء حديثه – إلا ما في رأسه.

ولا أدري إن كانت غربتي أمام هيئة الرجل كانت أساسا بسبب توقعي السابق لأستاذ أبيض الشعر على الأرجح، مثقل بحمل السنوات، ربما يميل للامتلاء، فيبدو أقل طولا مما هو، أم أنها كانت بسبب هيئته غير التقليدية وغير المتوقعة في سياق الجامعة التقليدي. ما الذي دفع بي إلى التحدث إليه هكذا في صراحة فاجأتني؟ هل هي غربتي فاضت بي أمام هيئة استغربتها أم أن شيئا لمحته في عيني الرجل وحديثه أشعرني بالألفة؟ قلت له إنني بدأت أشعر بالخوف وإنني قد أغالب غربتي وأستمر وقد أحزم أمتعتي وأذهب، لا أدري، قلت إنني أريد دراسة الأدب الأفرو – أمريكي كجزء من انشغالي بعلاقة الأدب بواقع النضال الشعبي، وإنني أدرس في قسم للأدب الإنجليزي، ولكني لا أريد التورط في بذل سنوات من العمر والجهد في دراسة لا تدخل في نطاق همومي الملحة والقضايا الأكثر إلحاحا لواقعنا الثقافي.

استمع لي ولم يطل في حديثه، واقترح خطوات عملية محددة كالالتقاء بمدير الدراسات العليا في قسم اللغة الإنجليزية (باعتباره القسم الذي سوف يمنحني الدرجة

العلمية) وزيارة أستاذ بعينه اقترح أن يكون المشرف علـى دراستي ثم قال:

- أقترح أيضا أن تضيفي إلى المقررات التي ستختارينها لهذا الفصل الدراسي مقـرر الأدب الإفريقـي. فهنـا الروائي النيجيري شينوا آشيبي، وأعتقد أن الاسـتماع لمحاضرته فرصة لا تفوت.

تركت القسم وقد توارى شعوري بالقلق والغربة خلـف طرافة الموقف والفرق بين صورتي للأستاذ والشاب الـذي التقيت به. كتبت لمريد رسالة عن ذلك وكنت أضحك. ولـم يدر ساعتها بخلدي أن الموقف كان يحمل مفارقة أخـرى أو أنني قد أكون أدهشت الرجل بقدر ما أدهشني، ألم تقل السيدة العجوز إنني صديقتها؟ والأوراق الرسمية ألا تقـول إننـي حاصلة على الماجستير ولي خبرة ست سنوات في التدريس بالجامعة؟ ومن جلست في مواجهته – أنا في خريـف عـام ١٩٧٣ – فتاة صغيرة الحجم، يؤكد وجههـا المسـتدير ذو الملامح المتناسقة، وشعرها القصير جـدا كشـعر صـبي، وبساطة ملبسها، وهيئتها ككل أنها دون العشرين!

راح مايكل يقود سيارته الحمراء ذات السقف المفتوح باندفاع لا يحدد سرعته إلا تعرج السكك الجبلية ومنحنياتها المفاجئة. بضع كلمات في أول الطريق تبادلناها ثم ساد الصمت. غلبنا المكان ربما باخضراره المطلق رغم علامات واهية لخريف على الأبواب، أصفر وبرتقالي وأحمر كلها تضيع في الأخضر الكثيف الكثير. فأعود إلى النهر الذي ولدت في بيت يطل عليه، والوادي الممتد في الشمال بخير النهر الأخضر بكدح فلاحين نحاف تنحني ظهورهم لحرث الأرض وبذرها، والوادي الممتد في الجنوب، تداهمه الصحراء، تتحرش به، وتطغى عليه حتى يصير شريطا ضيقا من الخضرة المحاصرة. وأنا أجلس منكمشة. هل هي الغربة في المكان أم صعوبة التواصل مع هذا الشاب الجامايكي الذي يبدو وهو يقود سيارته مستغرقا في بعيد أجهله؟ كنا في طريقنا إلى بلدة مجاورة لأمهرست للالتقاء بالأستاذ الذي اقترح مايكل أن يكون مشرفا على دراستي.

هذه المرة لم يفاجئني الأستاذ، رجل على مشارف الستين أبيض الشعر، تكشف حركته رغم نشاطه عن ثقل الجسد المحمل بعبء السنوات. وبدا لي الأستاذ أمريكيا

تماما في سترته ذات المربعات والسلسلة الفضية التي تحـيط بمعصمه والحذاء الأبيض المطاط الذي ينتعله. جلسـنا فـي شرفة فسيحة لا يفصلها عن حرش النباتات البرية المحيطـة إلا حاجز من السلك المخرم يمتد من سور الشرفة الخشـبي إلى سقفها، تحدثنا عن مشروعي الدراسي بلا إفاضة وقبل أن نغادر، ربت الأستاذ الأمريكي العجوز على كتفـي قـائلا: « حاولي أن تغالبي شعورك بالغربة! » هل تـورد وجهـي حياء؟ المؤكد أن كلمات الأستاذ فاجأتني! وأحرجتني التفاتـه لغربتي ولم أكد قد أشرت لذلك.

ركبنا السيارة عائدين إلى أمهرست. في الطريق دعاني مايكل لتناول العشاء فوافقت. قال وهو يوقف سـيارته أمـام محل لبيع الأسماك.

- هل تحبي الاستاكوزا؟
- لا أعرفها!

ذهب ثم عاد بعد دقائق وبيده كيس كبير مـن الـورق البني أحدث به بعض الثقوب، نظرت داخل الكيس فوجـدت حيوانين بحريين يحركان أرجلهمـا الطويلـة التـي تنتهـي بخطافات ضخمة نسبيا. قال مايكل وهو يبتسم: « لا تبتئسي

هكذا، سأطهو لك شيئا آخر!» توقفنا ثانية في أمهرست أمـام أحد المحلات وابتعنا لحما وخبزا وبعض الخضراوات.

ثم تجاوزنا أمهرست ورحنا نصعد إلى التلال الواقعـة إلى شمال البلدة عبر سكك جبلية ملتوية بين أشجار سـامقة تحجب بأفرعها المتشابكة الكثيفة الخضراء ضوء الشـمس. أخيرا أوقف مايكل سيارته قائلا: « وصلنا! ».

بدا لي المكان وسط الخضرة الغائمة في الغسق الوشيك جميلا ومختلفا. وهذا السكون الذي أنصـت لـه وأسـتجيب غريب علي كأنه خلق جديد. فتح مايكل الباب فـدخلنا إلـى مطبخ فسيح، أضاء النور، وغسل يديه ثم ملأ آنيتين كبيرتين بالماء ووضعهما على النار ثم راح يتبل اللحم قبل أن يضعه في الفرن. ودخلت أنا إلى الحجرة المجاورة، حجرة للجلوس بها أريكة وعدة كراس ومائدة صغيرة. على أحد الجـدران صورة فوتوغرافية مكبرة بالأبيض والأسود لغيفارا يركـب حصانا بين الأحراش ويتألق وجهه كأنه النجمة التي تـزين قبعته الداكنة، وعلى الجدار المجاور مجموعة من الأسـلحة الصغيرة: بندقية ومسدسان معلقة بشكل متناسـق وجميـل، وبمحاذاة الحائط المواجه لوحان من الخشب صفت عليهمـا

الكتب يرتفعان عن الأرض بمقدار طـول الأحجـار التـي يرتكزان إليها. رحت أنظر إلى عنـاوين الكتـب وأتصـفح البعض منها لكي أدفع بعيدا ذلك السؤال الذي راح يلح علي. كان الصمت في المكان مطبقا يؤكد عزلة هذا البيت الجبلـي النائي ويثير الوحشة في نفسي أسأل: « ما الذي أتى بي إلى هنا؟ » هل هو افتقاد الغريبة للأمان أم هي مخاوف مبهمـة ترسخت في النفس عن الاثنين اللذين ثالثهما هو الشـيطان؟ عدت إلى المطبخ فوجدت مايكل وقد وضع الاستكاوزا هكذا كاملة وحية في الماء المغلي بالآنية الأولى ووضع في الثانية أربعة أكواز من الذرة يسلقها قال:

- ماذا تشربين؟

- عصير.

- ألا تشربين شيئا آخر؟

- شكرا، فقط عصير.

جلسنا نأكل في صمت. مايكل فـي مـواجهتي ووراءه على الحائط صورة « التشي » على حصانه بين الأدغـال. فما الذي أتى إلي بنجيب سرور حاضرا في المكـان كأنـه ثالثنا، رمادي الوجه كما رأيته قبل مغادرتي للقـاهرة، وقـد

أصابه عرج خفيف وإن كان ملحوظا بأحد ساقيه؟ وبلا نيـة مسبقة رحت أحدث مايكل عن شخص عبد الناصر، وحرب الأيام الستة، ومقاطعة أهلي لزواجي على غيـر إرادتهـم، واعتصامات الطلاب، وذلك الغزل الفريد الذي يغنيه الشـيخ إمام للإسكندرية والذي يؤنسني ترديد بيتين بالـذات منـه: « كأني جوا المظاهرة طالب/ هتف باسمك ومات معيـدا! » لا بد أنني تحدثت في مواضيع متعددة، أم كـان الموضـوع واحدا؟ من المؤكد أنني تحدثت طويلا وإلا فكيف اسـتطعت أن أقول كل الذي قلت عن أوجاع الجيل الـذي انـدفع مـن الأناشيد الحماسية إلى أتون الأيام الستة والمذابح والرماد؟

وحين ركبنا السيارة لكي يعيدني مايكل إلـى بـرينس هاوس كنت أشعر بارتياح من تخفف من بعض حمله. التفت إليه فجأة وقلت وأنا ابتسم:

- قد نحترق في هذا الوهج، صحيح، ونصير رمادا، وقد تنضجنا النار فنطلع منها كأنبياء أو كأرغفة!

ولما وصلنا إلى برينس قلت:

- انتظر دقيقة!

صعدت إلى حجرتي وأتيت بالصندوق الخشبي الصغير المطعم بالصدف الذي كنت قد ابتعته من القاهرة ومددت يدي به من نافذة السيارة وأنا أقول بابتسامة:

- كنت أتصورك أستاذا كبير السن، فلما وجدتك تقاربني في العمر، خجلت من إعطائك الهدية التي حملتها لـك من مصر. الآن صار الأمـر مختلفـا. لقـد صـرنا صديقين أليس كذلك!

للعين الخارجية كنت أقدم نموذجا للقدرة علـى التـآلف السريع مع واقعي الجديد، فأنا أجيد الإنجليزية، ويسهل علي التواصل مع الناس، وأحب الثرثرة مني ومن الآخرين، فمـا انقضى أسبوع على وصولي حتى كنت قد تعرفت على عدد كبير من الطلاب الأمريكيين والأجانب.

ومع هذا كان الارتباط داخلي هو الغالب، إذ بدا لي كل شيء غريبا ومختلفا. ومنذ اللحظة التي دفعت فيهـا البـاب الزجاجي لمطار لوغان في بوسطون وخرجت إلى الشارع، كنت أخطو في عالم جديد، جديد حتى في تسـاقط الأمطـار بهذه الغزارة في يوم قائظ الحرارة في آخر شهر أغسـطس جلست فيه بجوار سائق تاكسي أراقب الحركـة المسـتمرة

لمساحات السيارة ولحبات المطر وأنا أتصبب عرقا من شدة الرطوبة والحر.

حين وصلت الجامعة لم تكن الدراسة قد بـدأت بعـد، وكان معظم الطلاب لا يلبسون إلا الشورت والطالبات يضفن له « بلوزة » قطيفة لا يتجاوز عرضها الشبر تترك الـبطن والظهر عاريين للشمس، يسيرون أحيانا حفاة فـي المكـان يتبادلون قبلات العشق علنا، ورغم طرافة المشهد الذي لـم يكن يسيء لأي معتقد لي، فقد كان يؤكد أنني بعيدة بل بعيدة جدا عن كل ما عرفت وألفت، وأنني وحدي.

وحدي كنت في غرفتي في برينس هاوس بعد أيام مـن وصولي، حين دق الباب ودخلت امرأة في منتصف العمـر يداها محملتان بالحقائب. حيتني برأسها ودخلت وضعت مـا في يديها وخرجت، ثم جاء رجل يحمل هو أيضا أشياء. ثـم عادت المرأة محملة اليدين للمرة الثانية. وهكذا ظلا يروحان ويجيئان وقد رجحت أن السيدة ستكون زميلتي في الغرفة.

كذب ظني، أخيرا ظهرت فتاة شقراء طويلـة نحيلـة، سلمت علي وسلمت عليها، ثم انشغلت مع من اتضح أنهمـا أبواها في ترتيب الأشياء، الملابس في الدولاب، المـلاءات

والأغطية على السرير على المكتب والآلة الكاتبة ومجموعة من رزم الأوراق التي لم تفتح. وتصورت أن الفتـاة علـى صغر سنها لا بد في مرحلة طباعة رسالة الـدكتوراه. ولـم أستنتج ذلك من الكم الهائـل مـن الأوراق المكتبيـة التـي وضعتها بجوار الآلة الكاتبة فقط، بل أساسا من هذا التفـاني والإيثار الواضحين جدا في تصرفات والديها. حياني الرجل والمرأة ونزلا ونزلت لويز معهما. ولما عادت كانت تحمـل بيدها دبا قطنيا من لعب الأطفال في حجم طفل قوي البنيـة تعدى عامه الأول، ووضعته على سريرها. وما إن جلسـت حتى سألتها:

لويز، ما هو تخصصك؟

- التربية البدنية.

- عفوا؟

ولكني كنت قد سمعت جيدا.

جاءت لويز إلى الجامعة لتدرس التربية البدنيـة وهـي جنوبية من ماريلاند، هذا ما قالته لي بعد ذلك، تـأتي إلـى أمهرست للمرة الأولى. قالت لي إن أجدادها لأبيها تجري في عروقهم دماء ملكية برتغالية.

- وأجدادي لأمي......

ولم أسمع باقي العبارة، كنت أفكر أنني أخيرا قد أكـون وجدت السبب في التعالي المنكمش الواضح في تعاملها معي، فهي لا تحدثني إلا إذا سألتها، وتـرد بـأدب شـديد يؤكـد المسافات، تصحو مبكرا على صوت المنبه وتأكل في صمت متباعد، وفي المساء تضـع دبهـا القطنـي تحـت رأسـها وتضطجع في السرير تقرأ في الكتاب المقدس.

مرة واحدة فقط بادأتني لويز الحـديث، وبـدت قلقـة ومتوجسة ومرتبكة وهي تسألني:

- ما هي ديانتك؟

- أنا من أسرة مسلمة.

ثم... صمت مطبق!

زاد وجود لويز معي في الغرفة من إحساسـي بـأنني وحدي، أقول لنفسي أحيانا: هل فقدت عقلي لكـي أسـتبدل بيتي في القاهرة ورفقة مريد بهذه الجنوبية البيضـاء ودبهـا القطني! ».

ورحت أنتظر رسالة من القاهرة، رحت أنتظرها كـل يوم رغم كل الحسابات التي تقول إنها لم يحن وصولها (ألم

أرسل عنواني بعد وصولي؟ ألا يجب أن يصل العنـوان؟ ألا تستغرق الرسالة أسبوعا على الأقل للوصول إلـى القـاهرة وأسبوعا آخر للوصول منها؟) كنت أعـي اللامنطـق فـي عنادي ولكني كنت بحاجة إلى الانتظار، بحاجة ملحـة إلـى الفعل اليومي في ظل وجود رسالة حتى لو كانت هذه الرسالة وجودا غائبا هو المنتظر! وكانت هذه هـي بدايـة علاقتـي بصندوق البريد الصغير في الدور الأرضي ببرينس هـاوس الذي يحمل رقم غرفتي « ٢٢٤ ». في اليوم الواحد أمر بـه عدة مرات، أنظر عبر طاقته الزجاجية فلا أرى شـيئا ثـم أفتحه للتأكد، أجده خاويا وأهب. فهل كنت خائفة؟ ساعتها لم أع مدى خوفي، ولكني كنت أعرف أنني قلقة. وبدا لي أنني ومريد اللذين عشنا طويلا في ظل جغرافيا مفرقة، بافتراقنـا هذه المرة قد نضيع. ولد وبنية عاشقان، نعم، ولكنهما يسيران كل وحده في طرقات نصف مختلفة من دنيا واسعة لا يميزها الأمان بشكل خاص. كان قد مضى علـى صـداقتنا سـبع سنوات وعلى زواجنا ثلاث. وفي القاهرة بدا لـي بعـد أن فكرنا في أمر قبولي للمنحة الدراسية وسفري وقبلناه، بدا لي

أنين امرأة خرقاء تترك أمان البيت، (وطنا هو ألفة الأماكن والصحاب ورجلا تحب، وتذهب هكذا! ».

وتلك الأغلفة الستة المصفوفة بجوار بعضها في مكتبتنا البنية تحمل رسائلنا وحكايتنا على مدى ثلاث سـنوات قبـل الزواج نلتقي فيها لشهر واحد كل عام، كم غلافا تزيد وكـم رسالة ؟ أمرضتني الفكرة، لازمت الفراش وعادني الطبيـب وبدا لي أنني مضطربة، ولكني في الحق كنت خائفة إلى حد الذعر. ووقفت كمحاربة خذلته نفسه حين رأى وجه غريمـه المنقض. سأولي الأدبار، قلت لنفسي، ولكني سافرت.

بعد أسبوع من وصولي أعلنت إدارة الجامعة أن علـى الطلاب الجدد أن يتواجدوا في اليوم التالي في مركز الحـرم الجامعي لالتقاط الصور الخاصة بالبطاقة الجامعية.

في الساعة المحددة توجهت إلى المبنى المحـدد تحـت أمطار غزيرة في جو رطب. وفي المركز وقفت في صـف طويل بممر ضيق يزيد من الشعور بالاختناق الـذي يخلفـه امتزاج الرطوبة بـالحرارة. وأخيـرا جـاء دوري والـتقط المصور لي الصورة وذهبت.

بعد أيام حين تسلمت البطاقة الجامعية كان عليها صورة صغيرة ملونة أكبر قليلا من حجم طابع بريد لفتـاة شـعرها قصير ومشعث، عيناها الواسعتان محدقتان أكثر من المعتاد، لهما نظرة قلقة مضطربة أضاعت كل ملاحة للوجه، صورة يتبادر لمشاهدها أنها لفتاة بلهاء أو مذعورة!

٢

حين استيقظت من نومي صباح ذلك اليوم الخريفي شهر أكتوبر نويت الذهاب إلى المركز التجاري لشراء آلة كاتبـة. ولما كانت السماء صحوا والطقس ليس شديد البرودة. قررت أن أذهب مشيا. خرجت من البيت ولم أنحرف يمينـا إلـى الطريق المؤدية بي مباشرة إلى الوادي بل سرت في اتجـاه شارع أحبة، يمتد من الجامعة المتداخلة في البلدة والتـي لا سور لها إلى خارجها، حين وصلت إلى الجامعة في الصيف كانت أغصان الأشجار المغروسة على جانبي الشارع تتشابك مكونة خميلة خضراء لا تنفذ منها أشعة الشـمس. أمـا الآن وقد بدأت الفروع تتخفف من بعض أوراقها، فلقـد راحـت أشعة الشمس تتسلل عبرها وتصل إلى الأرض تزاحم الظـل عليها مكونة مساحات متداخلة من العتمة والضوء. وأفكر في الدنانير التي تفر من البنان » ثم أخذني مـن أبـي الطيـب المتنبي خشخشة الأوراق الجافة تحت خطواتي وأنا أمشـي ودوائر الأوراق التي تحيط بأسفل جذع كل شـجرة وكأنهـا

تؤكد انتماءها، أوراق صفراء وذهبية وبنية وفي لون نشارة الخشب. انحرفت يمينا وبدأت الطريق في الانحدار وأخـذت أسير بحركة مندفعة للأمم بفعل الطريق المنحدرة مسـتجيبة لروعة المكان بتوقد داخلي صاخب ثم بدأت أركض، تفاجئني الأشجار فأتوقف وأسير ببطء، ثم أعود أسـتجيب لتوهجهـا بالركض ثانية. لم أر هكذا أشجارا في حياتي، لم تكن كثرتها وتنوعها وكثافة الأوراق فيها هي التي تهـب المكـان ذلـك الوهج بل تعدد فريد لألوان الورق علـى فـروع الشـجرة الواحدة. ورق أخضر على استحياء كأنه الربيع في البـدء، وأخضر زاه، وأصفر ساطع وأصفر أنعم، وبرتقالي صاخب، وأحمر كالحناء، وأحمر كالصدأ، وبني فاتح، وبني داكن، ثم بني قاتم كالموت. وكأن الشجرة الواحدة قد حلت فيهـا كـل حالات الوجود، عرس، الألوان. ثم ماذا بعد تـوهج هكـذا مطلق؟ التفكير يتنافى.. تركته للركض كمهرة أو كطفلـة أو كامرأة تحب أن تمجد الحياة بشكل لائق حين تتبـدى هكـذا جميلة.

وحين بدت صفوف السيارات اللامعة في ضوء الشمس والمصطفة في المساحات الواسعة المخصصـة لهـا أمـام

المحلات التجارية كنت قد سرت ما يقرب من الساعة. التفتّ ورائي، فإذا بمباني الجامعة بأعلى التل تبدو كعلب كبريت متفاوتة الأحجام، متناثرة هنا وهناك ومتنافرة مع المكان بشكل واضح. أدرت لها ظهري وأكملت الطريق إلى المحل الذي أقصد.

قلت وأنا أنظر للطريق الصاعدة أمام هأنا لم أحسب للرجوع حسابا، سينقصم ظهري دون الوصول! على أي حال أحاول. سرت بضع دقائق ولكني كنت متعبة، لم تكن الآلة الكاتبة التي اشتريتها، رغم كونها من النوع الصغير الذي يحمل حقيبة خاصة، خفيفة. توقفت على طريق السيارات ومددت ساعدي قابضة أصابع اليد باستثناء الإبهام كنت قررت أن أركب « أتوستوب » رغم ما سمعت من تحذيرات بأن الأمر صار مخاطرة لكثرة أحداث العنف. ما الذي سيحدث لي في وضح النهار وعلى بعد أميال معدودة من الحرم الجامعي؟ توقفت سيارة:

- هل أنتم ذاهبون باتجاه جامعة ماس؟

رد أحدهم بالإيجاب ففتحت باب السيارة قائلة:

- سأنزل بأعلى التلة.

وحين نزلت من السيارة بعد أقل من خمس دقائق كـان لدي سبب إضافي للمرح إلى جانب توفير جهد طلوع الجبل سيرا هو النظرة المندهشة للشباب الأمريكيين الثلاثة الـذين كانوا بالسيارة. والأرجح أن لهجتي الواثقة، الآمرة تقريبـا، كانت أكثر مما يتوقعون من شخص أجنبي، فما بالك وهـذا الشخص ليس من الجنس الأوروبي الأسمى ولا حتـى مـن جنس الرجال!

ما إن تتراجع المنغصات بعض الشيء عنـي وأصـفو حتى تطل الطفلة برأسها من داخلي على استحياء ثم تدريجيا تروح تستعيد مجد الأيام الفائتة حيـث كـان صـخبها هـو المحرك والقاعدة. هكذا كنت في ذلك اليوم الخريفـي، ولـم تكن الأشجار هي العلة وحدها، بل كان أننـي بـدأت آلـف المكان وأرتبط ببعض من فيه.

تركت لويز زميلتي في الحجرة الجامعية مكانهـا بعـد أسبوعين من وصولها. فشعرت بارتياح عميـق لانفـرادي بالحجرة دون سليلة ملـوك البرتغـال التـي اكتشـفت أن لانكماشها مني أسبابا أخرى أيضا. كانـت الفتـاة الجنوبيـة البيضاء خائفة مني، متوجسة من لون بشرتي، من خلفيتـي

الدينية، من جنسيتي، كانت باختصار خائفة من مجرد أنني أنا، وأنني موجود في هذا العالم. فهل كانت لويز تخشى أن أقوم في الليل وأدق الطبول من حولها ثم ألتهمها حية! أم تخشى أن أطيح برقبتها الملكية وهي نائمة؟ أم كانت البلهاء تخاف أن أتحين الفرصة في غيابها وأدق على آلتها الكاتبة؟ لا أدري على أي شيء أسقطت لويز مخاوفها، لكن المهم أنها انزاحت عن الجامعة وقلبي فاسترحت.

ووصلتني من مصر رسائل. رسالتان من مريد جاءتا معا وهذا الصندوق الصغير صار طيبا لا أنسى عطاءه حتى حين أفتحه فلا أجد بداخله شيئا. رسالتان في الصندوق معا، وبعد يومين رسالة أخرى ثم رسالة من صديقة لي. وأنا أغلق باب الصندوق الصغير برفق الصديق وأفتح الرسالة وأبدأ في قراءتها وأصعد درجات السلم المفضي إلى حجرتي بالدور الثاني أو أقف أمام الصندوق أقرأ الرسالة مرة أولى قبل الخروج إلى الجامعة للحاق بمحاضرة.

وتأتيني كلمات مريد كقبلة على الجبين تباركني، أخرج وأرتبك وأسأل نفسي في عتب هل كانت تنقص مريد الغربة؟ تستحيل عودته لفلسطين والبيت ليس وطنا ولكنه وطن!

تحمس لسفري، وشجعني، ولكني أعـرف أنـه سـاعة أدار المفتاح في الباب ودخل البيت داهمته الوحشة فكيف أردهـا عنه. يقول في رسالته: « حين سافرت سافر الـوطن مـرة أخرى »، وهو لا يعرف أن هذه الرسائل كانت في الغربـة لي هي الوطن، أمامها يتراجع الشعور بأنني انفلتّ ضـائعة في فضاء خارجي لم أعرف له بعد قانونا. ستزيد المغلفـات حاملات رسائلنا، ليس هذا محزنا إلى هـذا الحـد، أليسـت حكايتنا هي التي تطول وتبدأ فصلا جديدا؟

وقدمي التي كدت أرجع بها إلى الوراء أقدمت خطـوة على استحياء ثم خطوتين، وراحت المرأة الصغيرة تستجيب وتتعلم.

أخذت أقرأ بنهم في التاريخ وفي الأدب، أدخل مساحات من المعرفة تثقل القلب، وأحيا من جديـد آلام سـيدة الآلام أفريقيا النازفة عبر مئات السنين. أربعون مليونا من أبنائهـا يشحنون في السفن هم البضاعة وهم الحمولـة. عنـد هـذه القلاع على شواطئها الغربية يختمون، تكدس السفن بهم إلى وجهتها في عالم جديد يبدءون أيامهم فيه على خشبة المـزاد العلني. بيع وشراء، مال وبضاعة. تتحرك الآلة تبتلع وتنتج.

عبيد كثار يفلحون أرضا. سيد في بيت أبيض مرفوع على عمد. مساحات تترامى من تبغ وقطن وقصب السكر. آلة تبتلع العمر وتدور. والعبيد يغنون: « أحيانا أشعر / كطفل لا أم له / بعيد جدا عن بيتي ». عبد يهرب تحت جنح الليل. عبد يتآمر في السر. عبيد يقسمون: حتى الوليد من صلبهم سنقتله لأنه سيكبر يوما ويصير بالحق العنصري مالكا لنا. ولكنهم يقتلون. الأحمر يغلب في هذا العالم الجديد في العنف، والغربة تسري. ويحكي العبيد عن العبد الفتي الذي صرع الشيطان في حياته ثم مات ووجهته الجنة فلم يقبل، فقصد جهنم فلم يقبل، فحمل مصباحه وراح يهيم في الكون وعبر الزمان. تتعاقب الأجيال والغربة تسري، وقطار يحمل أسرا من السود يأتون إلى مدن الشمال هربا من دودة القطن وسطوة الأسياد. العبودية فعل ماض. وهؤلاء القادمون أحرار بحكم التاريخ والقانون المدون. وتدور الآلة تبتلع وتنتج. هذا أسود يضرب حتى الموت. هذا أسود يهمس في الفجر. جموع سوداء ونار تضطرم في المكان كحريق تتناقله أشجار الغابة في العاصفة. والغربة تسري والأحمر يسري.

وأقرأ في الأدب الأفريقي وتاريخ حضـارات، تتسـع المساحات أمامي وتترامى. وهذا الأزرق البحـري حـدود المكان. والزمن يسري مثقلا بالفعل كهذه الأنهر الثلاثة: النيل والنيجر والكونغو. أخوض في الزمان فأنتمي للمكان. مقص صغير يدور في ورقة سوداء محددا شكل أفريقيا. مساحة من الأسود ألصقها على خلفية الأخض، وبقلم رصـاص أرسـم خارطة القارة على ورقة بيضاء وأفصّـل عليهـا جغرافيـة المكان وحدود دوله، ألصقها على خلفية من الأحمر. وأقبـل بنهم على هذه الكتابة التي كنت أجهلها. تتسـع المسـاحات وتتحدد والعين تبصر جموعا تسعى وسدودا تعترض طريق النهر. هذا سد يسقط. هذا السـد سيسـقط. جمـوع تسـعى تبصرها العين ويخشى القلب الدم المسفوك ثم يهلل هللياويا! وأتعلم.. من حركة خاطفة على حشائش ندية يعقبها سـكون منكمش متوجس لصق جذع شجرة. السنجاب الجديـد علـي يباغتني فأعرف أنه في سكونه كالفأر قبيح ولكنه في حركته الخاطفة انسياب مدهش وجميل.

وأحضر حفلا موسيقيا لديوك ألينغتون وأسـتمع للمـرة الأولى لموسيقى الجاز تعزفها فرقة أمـام عينـي. وجاهـدة

أحاول الفصل بين الرجل الجالس إلى البيانو والذي تجـاوز السبعين والنغم المنبعث من حركة يديه ومن الآلات الأخرى التي يقودها فلا أستطيع. هل هذه الموسيقى منه أم هو الـذي منها؟ وأي إيقاع ذلك الذي يملأ المكان ويحاوره جسد الشيخ العازف، إيقاع سنوات العمر السبعين أم إيقاع الموسـيقى أم هو إيقاع أمة في السبي؟ وهذا الساكسافون وجع الروح مرئيا ومسموعا.

كنت قد بدأت أستعيد شيئا من الطمأنينة والقدرة علـى الصخب. لذلك حين وجدت نفسي بين كـل تلـك الأشـجار المتوهجة في ذلك اليوم الخريفي الدافئ توهجـت ورحـت أركض كمهرة نافرة أو كطفلة.

دخلت إلى برينس هاوس وبيدي الآلة الكاتبـة الجديـدة وانحرفــت يســارا حيــث صــناديق البريــد فســمعت مسز روبنسون، مديرة البيت، تقف بباب حجرتها في نهايـة الردهة تناديني. حين وصلتها كانت قد عادت إلـى مكانهـا المعتاد وراء المكتب قالت:

- روبرت وزوجته اتصلا بك وهما يعربان عن أسـفهما لاندلاع الحرب بين مصر وإسرائيل...

- أنا أيضا آسفة لهذه الأخبار، أرجو ألا تقلقي أكثر من اللازم!

للحظة بدا لي أن المرأة بصوتها الرفيع وجسدها النحيل الجاف ومكتبها وحجرتها وجود كابوس عبثي. أية حرب؟ وأي أسف؟ وأي روبرت؟ صعدت ركضا إلى حجرة الطالبة العربية الوحيدة بالبيت « ماذا حدث؟ » رحنا نقلب في محطات الإذاعة.

حين اندلعت حرب ١٩٦٧ كنت في إحدى قاعات الدرس بجامعة القاهرة أقدم امتحانا في اللغة اللاتينية، وفي وعيي الذي خلقته الأناشيد الحماسية وخطابات عبد الناصر وجو الإنجاز الوطني العام الذي أشاعه إعلام المرحلة، كان الاشتباك مع إسرائيل يساوي لحظة لاسترجاع الحق ودحر الغزاة، وكأن زحف الجيوش باتجاه أراضي فلسطين المحتلة يعني انتصار الجيوش في تحريرها، وكأن الحرب فرح أو وعد بفرح. ولذلك حين سمعت صوت القصف وأنا جالسة أكتب إجابة سؤال من أسئلة الامتحان لم أتوجس. ولما غادرت القاعة وعرفت خبر اشتباك القوات اندفعت في الحماس. فما الذي حدث الآن لكي أشعر بهذا الخوف الغالب

وكل هذا الارتباك؟ هل صرت بلا وعي مني أربط بين حرب وانكسار؟ أم هي عزلة الغريبة في بلد بعيد؟ أم هو الحس العاقل بأن حكاما كهؤلاء لا يمكن أن يقودوا البلاد لبر أمان؟ أقعدني الخوف وليوم وبعض يوم لازمت غرفتي هيابة من مواجهة الآخرين.

وانتظر مكالمة تلفونية من القاهرة. لا تأتي، والإعلام الأمريكي حصار، وغولدا مايير بفيلم تلفزيوني تتجول بين بنايات من ثلاثة وأربعة طوابق. هل يمكن أن تكون السويس؟ قال المعلق في نشرة الأخبار إنها السويس! وتحمل « النيويورك تايمز » في صحفتها الأولى صورة لجند مصريين أسرى مع حارسهم الإسرائيلي وكعب بندقيته بمستوى رءوس المصريين. بأسفل الصورة. ولا نتيقن من إنجاز العبور وتحطيم خط بارليف لا وقد وصلتنا أخبار الثغرة.

كنا عشرة من الطلاب العرب في جامعة أمريكية عدد طلابها يتجاوز العشرين ألفا. من العشرة أنقصنا ثلاثة، واحدا متفرغا للنصب واثنتين محكومتين بقبضة حديدية لرجل هو زوج الأولى وأخو الثانية. (تذهبان معا إلى المختبر في

الجامعة ومعا تعودان ويا ويلها من تلفت يمنة أو يسرة!) كان عددنا قليلا فقررنا تشكيل لجنة لا تقتصر علينا بل يسهم فيها كل من يرغب من طلاب الجامعة. وحين تشكلت اللجنة كان بها طلاب أمريكيون من الشـبيبة الشـيوعية والتروتسـكية وطلبة من أفريقيا وأمريكا اللاتينية. وبهذا اكتسبت « لجنـة الدفاع عن حقوق الشعب الفلسطيني والعربي » مكانتها بـين نشاطات طلاب العالم الثالث داخل الحرم الجامعي.

واجتمعت اللجنة للمرة الأولى في قاعة صـغيرة مـن قاعات اتحاد الطلبة. قعد البعض منا علـى الأرض ووقـف البعض الآخر وجلس الباقون على الكراسي القليلة الموجودة. على الأرض جلس شاب من منظمة الشبيبة التابعة للحـزب الشيوعي الأمريكي يعلق في سترته الجينز الكالحـة شـارة معدنية مدورة عليها صورة قبضات مرفوعة لسواعد بيضاء وسوداء وحمراء. له لحية كثة وشعر مشعث يلمه خلف أذنيه بشريط أسود دقيق، ويربط عنقه بمنديل أحمر كأنـه بحـار عتيق. تكشف ملامحه الدقيقة وعيناه القلقتان عن بنيان نفسي رقيق بل وهش. كان صغير السن، لم يتجاوز العشرين على الأرجح، وشديد العذوبة في تعامله مع الآخرين.

في مقابله جلس أيضا على الأرض شباب تروتسكيون ثلاثة، فتاة واثنان من الشباب تكشف هيئتهم عن انتمائهم للثقافة الهيبية. ملابسهم عتيقة وكالحة. لا تلبس الفتاة صديرية ويصل شعر الشابين إلى أكتافهما. تكلموا عن رفضهم لإسرائيل كدولة استعمار استيطاني.

وشاب أمريكي من الجماعات السوداء وقف مستندا إلى الحائط، فارع الطول ونحيل، سواده لامع، جميل القسمات، تبدو واضحة عنايته بما يلبس. يعي جماله وقوته ويحب أن يعرف الآخرون أنه أسود جميل وقوي.

وبجواره وقف الشباب الأثيوبيون في وجوههم اختصار مدهش للعلاقة القديمة بين القارة السوداء وجزيرة العرب، في عيونهم إباء لا يعيرون ملبسهم عناية خاصة، يتكلمون بهدوء وخبرة تنظيمية.

وفي ذلك الاجتماع الأول لم يحضر سوى بدرو من طلبة أمريكا اللاتينية، فتى فوار وطيب ويصر على أنه من أصل فلسطيني. « جدي من فلسطين »، « وما اسم جدك يا بدرو؟ » فيحمر وجهه ويقول بالحماس السريع نفسه: « ليس جدي مباشرة بل أبو جدي!».

أما نحن الطلبة العرب فتناثرنا في القاعة نشـارك فـي الحوار ونعمل على الوصول إلى عدد من النقاط المشـتركة نصوغها في بيان تأسيسي ننشـره فـي جريـدة « الـديلي كوليجيان » الجريدة اليومية للجامعة. كنا سبعة، مصـريون ثلاثة وسوريان وفلسطيني ولبنانية. وكان واضحا أن البعض منا غير متصالح مع هذا التكوين للجنة حتى أن أحدهم قـال بنبرة شبه غاضبة قبل مغادرته القاعة: « علينا أن نقـرر إن كانت هذه لجنة عربية أم لكل من هب ودب من الشـيوعيين والسود! » كان من الواضح أن زميلنا خائف مـن وجـوده هكذا فجأة وسط أناس يرفضهم طبقيا وعنصـريا ويخشـاهم سياسيا، ومع ذلك بقيت له عين في الجنة وعين فـي النـار، يريد فعاليتهم وقدرتهم على المساندة، ويتمنى في الوقت نفسه لو أنهم غير موجودين! والأرجح أن آخرين كانوا يشـعرون بما يشعر به وإن لم يفصحوا عنه مثله.

أوضحنا موقفنا في بياننا وفي عدة رسائل إلى المحـرر مركزين على أن عداءنا لإسرائيل ليس رفضا لليهود أو عداء للسامية بل هو رفض للصهيونية ولدولة استعمار اسـتيطاني ترتبط مصالحها بمصالح الإمبريالية. وبدأنا نتناوب العمل في

الوقوف أمام مائدة المطبوعات بمركز الحرم. ولم تكن مهمتنا هي فقط توزيع النشرات وبيع الكتب بل كانت أساسا توضيح الاستفسارات حول القضية ومناقشة من يريد الدخول في حوار حول الموضوع.

وكان الجو العام في القاعة شديد الحيوية والتنوع، فإدارة المركز تسمح بمائدة لكل من يطلب ما دام هناك مكان وموائد. بالقرب منا مائدة لفتاة تهوى صناعة الأحزمة الجلدية، تزخرفها بسكين وتبيعها، ومائدة أخرى لطلاب يصبون الشمع الملون في قوالب ذات أشكال مختلفة ويبيعونه. وموائد تحمل مطبوعات هذه الجماعة السياسية أو تلك، ومائدة عليها مطبوعات دعاة الشذوذ الجنسي، وفي لصقنا مباشرة وقف شاب هيبي الهيئة يبيع أدوات نحاسية صغيرة خاصة بتدخين الماريوانا.

كان مبنى مركز الحرم قد صمم حديثا لاستيعاب النشاطات الطلابية ولمنافع أخرى أيضا. مبنى ضخم من عشرة طوابق، طابقان منها تحت الأرض، يضمان مكاتب اتحاد الطلاب وقاعات للاجتماعات والعروض الموسيقية والسينمائية ومحلا تتفاوت معروضاته من الكتب إلى معجون

الأسنان ومحلا للحلاقة وآخر للطباعة ومكتب بريـد وآلات «فليبرز» وبائعات آلية للسجائر والحلوى ومقهيان يـوفران إلى جانب المشروبات بعض الوجبات السريعة. أمـا الأدوار العليا من المبنى ففيها فندق لزوار الجامعة ومطعم وبار. ولم تكن الحركة بمركز الطلبة تقل قبل انتصاف الليل.

في هذا المبنى نصبنا مائدة مطبوعاتنا بالقرب من أحـد المداخل وكان البعض يتوقف للسؤال أو النقاش، وكثيرا مـا كان يقترب شاب أو فتاة ويبدأ الحديث بالعبارة التالية:

- أنا يهودي / أنا يهودية!

باستفزاز، بحب استطلاع، أو بتوجس.

- نعم... و...

كنت أنتظر ما بعد ذلك. في أول الأمر كان العديد منهم يعتقدون أن هذا الرد دليل خبث أو حنكة سياسـية أو علـى الأقل لباقة، ولكنهم تدريجيا بدءوا يصدقون ما كنا نقوله عن عدم عدائنا لليهود كيهود ومن تأكيـدنا علـى الفـرق بـين اليهودية كدين والصهيونية كعقيدة سياسية.

هذا ما كان من أمر الطـلاب اليهـود العـاديين، أمـا الصهاينة فكانوا شديدي العدوانية تجاهنـا، وكـان أكثـرهم

عدوانية شباب « رابطة الدفاع اليهودي ». يسيرون داخـل الحرم الجامعي بالطواقي على رءوسهم وعلم إسرائيل علـى شكل قطعة قماش مستطيلة ملفوفة على ذراعهم. وكلما رأوا أحدا منا وقفوا يحدقون فيه باستفزاز إرهابي صـارخ. لـم يجرؤوا على ضرب أحد منا خشية على أنفسهم ومسـتقبلهم الدراسي، ومع ذلك فلم يعدموا وسيلة لإشعارنا بأنهم هنـاك على استعداد للفتك بنا في أية لحظة. هكذا وقف أحدهم فـي مواجهة كل المتحدثين بإحدى ندواتنا علـى مـدى سـاعتين تقريبا يحدق في المتحدث ويحرك جذعه يمنة ويسرة. وهكذا أيضا كانوا يقفون بالساعات أمام مائدتنا لا ينطقون بحـرف، فقط يحدقون فينا لإرهابنا، فنزيد حـنقهم علينـا بتجـاهلهم ونواصل عملنا، الواحد منا يحل محل صاحبه حتى الرابعـة مساء، نجمع مطبوعاتنا نودعها في صندوق كرتوني كبيـر ونسلم المائدة ونذهب.

منذ طفولتي المبكرة رحت أغالب الخوف وأخرج مـن كل جولة معه رافعة رأسي في اعتداد طفولي جميل. نشـأت بين صبية ثلاثة هم إخوتي، ولأنني كنت دائمـا أخشـى أن تنسب لهم الشجاعة والإقدام لأنهم ذكـور وأن يـرتبط بـي

الضعف أو التخاذل، فقد كنت دائما أقفز للمواجهـة تاركـة خوفي ورائي. أمد يدي لأخذ حقنة التطعيم أولا وأدعـي أن الحقنة لا تؤلم.. لا أراوغ في تناول الدواء المر بل آخذه في هدوء متكلف مدعية أن مرارته مقبولة.. أراهن أخي الأكبر أنني أستطيع تجاوز قدرته على التحمل.. لا أبدي خوفي حين أضطر للدخول إلى مكان مظلم. ولا أدري تحديدا أي آثـار سلبية ترك هذا العناد الطفولي الممتزج برغبـة فـي تأكيـد الذات على سلوكي بعد ذلك ولكني أدري أنني اكتسب قـدرا من الشجاعة الأدبية والإقدام.

ولكني في هذه الجامعة الأمريكية التي درست وأقمـت فيها شعرت لأول مرة منذ طفولتي المبكرة بالخوف يلح. لقد نجح هؤلاء الصهاينة في إثارة قلق عميق في نفسـي، هـل ينقض أحد منهم علي بعصا غليظة حتى يحطم رأسي ؟ بأي شكل من الإيذاء يا ترى سيترجم هذا الشباب من « رابطـة الدفاع اليهودية » كراهيته المتبدية بهذا العنف في نظرته لي؟ وهذا المكان الأمريكي لا يثير في الـنفس الأمـان. وهـذه اللافتات المعلقة في كل مكان تزيد من الشعور بذلك، لافتات موجهة من الشرطة إلى الفتيات: « إذا وقع اعتـداء عليـك

اتصلي تلفونيا بأحد الأرقام التالية » وتبعا للأرقام الرسـمية المعلنة، هناك حادث اعتداء جنسي يتم كل ١١ دقيقـة فـي الولايات المتحدة. ومسز روبنسون مديرة البيت الأمريكيـة تخشى الخروج من برينس هاوس بعد المغرب. فهل أفعـل مثلها؟ هذه امرأة جففها الخوف. لم تحل مخاوفي دون الذهاب والرواح في كل وقت إلى أي مكان، ولكني في الليـل حـين يكاد الحرم الجامعي يخلو من الناس وأشعر بمجموعـة مـن الشباب يسيرون خلفي أبطئ الخطو حتى أتركهم يتجاوزونني وأرتاح لأنني أنا التي تراهم وتشرف على حـركتهم. وفـي الأيام الممطرة أو تلك التي يتوقع هطول المطر فيها أشـعر بقدر أكبر من الأمان (هذه المظلة لها عصا قوية، تصلح إن لزم الأمر للدفاع عن نفسي!).

٣

الركض حالة أعيشها دائما. في طفولتي كانـت طاقـة الحياة في تلح وتفيض فأركض. وفي مراهقتي ركضت خوفا من جسدي النامي ومن الحرامك المنتظر. ثم بقيت أركـض لكي لا أفقد ندي للرجال من أبناء جيلي، أركض لكي أتعلم، أركض لكي أستقل، وأركض لكي لا يعيـدني أهلـي إلـى حظيرة حبهم ووصايتهم، وأركض لكي لا يزج المجتمع بـي في خانة الدونية المعدة سلفا للنساء. وبقيت أركـض حتـى صار الركض طبيعة ثانية لي. وهكذا منذ وصلت إلى أمريكا وجدت نفسي أيضا أركض درءا للغربة ووفـاء بالتزامـات دراسية متعددة سعيا لتحصيل سريع يعيدني لمصر. فأحضر الدروس المقررة وأقرأ وأكتب وأناقش وأشرح وأقضي وقتـا طيبا، دائما ركضا.

ولكن يحدث أحيانا ما ليس بالحسبان فأتوقف، بتوقـف كل شيء. كنت أعبر الطريق ركضا وبيدي كتابان اشتريتهما

لتوي حين بدا لي أنني أسقط من فوق سور عال، أتـدحرج عليه بلا نهاية وعلى شفتي شبه سؤال معلق « لماذا »؟.

في المكان جلبة. أدور بعيني. أنا في الشارع. أنا ممـددة على الأرض.. ممددة على الأرض في الشارع. أرفع عيني. يتحلق حولي أناس لا أعرفهم. هذا وجه أعرفه. أتعلق بـه، أهتف « أهلا بدرو! » أعي تدريجيا أن حادثا ما وقع لـي. النفير المميز لسيارة إسعاف. يحملونني فيها. بجواري يجلس شخص لا أعرفه يسألني عن اسمي فأجيبه.

- عنوانك.؟

- حجرة ٢٢٤ برينس هاوس.

- عنوان أهلك؟

- أهلي ليسوا في البلد.

يصر الرجل وأنا متعبة أقول لنفسـي إنـه أحمـق لا يتصور معنى أن يرسل للقاهرة بأن دهمتنـي سـيارة، لـن أجيبه! تضايقني رجرجة السيارة، لماذا حملوني هكذا ممـددة على ظهري. أغمض عيني.

هأنا ممددة مرة أخرى. أين؟ ضوء ساطع. يفحصونني. هل هذا مستشفى الجامعة؟ أسمع شخصا يقول « كونكاشن »

لا أعرف معناها. هل رحت في غيبوبة أم نمت أم أعطـوني حقنة مخدرة؟ لا أدري... لا أذكر... كان الوقت صباحا حين نزلت لشراء الكتب. الوقت الآن ليـل. بجـواري مصـباح صغير وباقي الحجرة مظلم. شاب وفتاة في لبـاس أبـيض. حين ألحظ وجودهما وأنظر في تجاههما يبتسمان لي. ثـم لا أعود أشعر بوجودهما. هل نمت؟ هاهما ثانية. تضع الفتـاة في فمي ميزان الحرارة ويقيس الشاب لـي النـبض. أنـام وأصحو عليهما مرة أخرى يقيسان النبض والحرارة. يذهبان ويعودان. هل كانا يوقظانني أم كنت اسـتيقظ علـى وقـع خطواتهما؟ هل كانا دائما معا أم يأتي الشاب مرة والفتاة مرة أخرى فيبدو لي أنهما يأتيان معا؟ هل كان نوما أم غيبوبة؟

ولكني في صباح اليوم التالي كنت فـي حالـة جيـدة. ولاحظت أن الممرضات كن ودودات، نقلنني إلى سرير آخر بجوار نافذة تكشف جزءا من التلـة. هـذا فعـلا مستشـفى الجامعة، والدور الثاني الذي أنا فيه في مسـتوى الأشـجار نفسه من الجهة التي تطل النافذة عليها. كنا في بداية نوفمبر والشتاء لم يتوغل بعد فلم تتعر الأشجار من أوراقها تمامـا. بت أنظر إليها وأنا راقدة على جنبي الأيمن.

بعد الظهر جاءتني إحدى زميلاتي في برينس هـاوس وأتت معها بما أحتاج من ملابس، وبعدها جاء زملائي مـن الطلبة العرب وقال أحدهم مازحا وهو يسلم علي:

- طبعا، لم تعتادي السير بين السيارات. الجمال لا تدهم المشاة!

وأكمل الثاني ضاحكا:

- ما هي انطباعاتك عن الحيـاة المدنيـة بعيـدا عـن الصحراء؟

فقال الأول بسخرية:

- يجب أن تسألها عن التماسـيح أولا وهـل تعتـرض المستحمين في النهر!

قلت:

- أما أنا فلدي واقعة تفوق هذه الحكايات كلهـا. حـين وصلنا أقام لنا مكتب الطلبة الأجانب حفـل تعـارف وكان معنا طالبة جديدة من ألمانيا مالت عليها سـيدة أمريكية لا أعرف من أي كوكـب هبطـت وسـألتها باهتمام بالغ: « هل لديكم تليفونات في ألمانيا؟ » ويبدو أن صدمة الفتاة الألمانية بالسؤال أفقدتها القدرة علـى

الإجابة، ويبدو أيضا أن السيدة الأمريكية قـد لامـت نفسها لأنها أحرجت الفتاة بالسؤال، فقد لا يكون هناك في النهاية تلفونات في ألمانيا، فسكتت هي الأخرى ولم تنطق.

ضحك زواري من الحكاية وقال أحـدهم وهـو لا زال يضحك:

- إنك وا مفترية. صحيح إنهم جهلة ومنغلقون ولكنـي ليس إلى هذا الحد. اعترفي أن الحكاية من تأليفك!

قلت وأنا أبتسم:

- هذا ما سمعته، والعهدة على الراوي!

كنت أفضل بكثير من اليوم السابق ولم أعد أشكو آلاما محددة فاستكنت للرقاد في السرير وبي امتنان ضاف يصـل لكل شيء حولي. دهمتني سيارة، وهأنا بخير، ملأني شعور بالامتنان. ولما أخبرتني الممرضة بأنهم سيجرون علي بعض الفحوص صباح اليوم التالي تمهيدا لخروجي من المستشـفى كنت في حالة من الرضا والسكينة.

خرجت من باب المستشفى وكانـت الشـمس سـاطعة تضفي شيئا من التألق على المكان ودفئا مميـزا فـي يـوم

خريفي. قالت صديقتي التي جـاءت لاصـطحابي: « إنهـم جميعا ينتظرونك في السيارة » انعطفنا يمينا فوجدنا صديقنا الإيراني ينتظر بجوار سيارته ومعـه نصـف دسـتة مـن الصحاب أقبلوا علي جميعا وشدوا على يدي وقبلوني. عـدنا إلى برينس وقد تحولت السيارة إلى نسـخة مـن سـيارات الأجرة التي تنقل الركاب بين أقاليم مصر، تحمـل ضـعف حمولتها من ركاب يثرثرون في صخب. قلت وأنا أضحك.

- لا ينقص السيارة إلا السلال!

وهكذا وصلنا إلى برينس هاوس ودخلناه آمنـين فـي موكب ظافر « ألم نأت بالسلامة! » علقت صديقتي بجدية.

كنت قد بدأت الارتباط ببرينس هاوس بمعرفة من فيـه والاعتياد عليهم، من مديرة البيت التي تطل من باب حجرتها في الدور الأرضي من وقت لآخر كفأر يخرج رأسه الصغير من جحره في حذر متوجس، إلى مسئولي النظافة في الـدور الذي أسكن فيه اللذين كانا كشخصين فكاهيين فـي مسلسـل تلفزيوني، أحدهما قصير وسمين ويضحك بصمت كأنه يبتلع ضحكاته، والآخر طويل يتحدث بصوت جهـوري، يقـذف بضحكاته الصاخبة فيتحرك فكـه الأسـفل الضـخم بشـكل

مفاجئ. ومن طلاب البيت صار لي أصدقاء أسـكن إلـيهم ويسكنون إلي، ومعارف كثيرون يمتد بيننا أحيانا جسور من المودة والدفء. والكل يعيش تجربة الانتظار المشترك ساعة توزيع البريد حين نقف كل أمام صندوقه الصـغير والفتـاة السمراء السمينة المسئولة عن توزيع الرسائل يوميـا تبـدو كخيال متحرك عبر زجاج الصناديق وهي تـوزع الرسـائل التي حملها رجل البريد قبل قليل.

وجاءتني زميلة جديدة في الحجرة لا تجري في عروقها دماء ملكية، فكان ذلك أول ما حمدت الظروف عليه. كانـت أنيتا في الثامنة والعشرين، أي تكبرني بعام واحد، وتـدرس للحصول على درجة دكتوراه في علوم التغذية. ما إن دخلت الحجرة وعرفت أنني مصرية حتى أعلنت عن فرحها الغامر لأن جدها لأمها من أصل سوري. وضعت أمتعتهـا جانبـا وجلست تحكي لي، كما يفعل الأمريكيون غالبا، عن شـجرة العائلة. قالت إن جدها هاجر من سوريا في شـبابه وعمـل بالتجارة وأثرى وتزوج من امرأة إيطاليـة كاثوليكيـة هـي جدتها لأمها، وإن الأزمة الاقتصادية العظيمة في عام ١٩٢٩

والتي عاصرتها أمها كطفلة صغيرة أدت إلى إفلاس الجد الذي مات كمدا بعد ذلك.

- جدي كان اسمه توفيق (نطقتها تفيك) أليس هذا اسما عربيا؟

ثم أكملت، وحماس اكتشافها للأصل المشترك بيننا يغطي مساحة جديدة من حديثها:

- أما أبي فمن المورمون، والمورمون هم جماعة...

كانت الفتاة طيبة وسهلة المعشر، بها مسحة ريفية تتبدى في جلستها وسلوكها المحافظ بالمقارنة لبنات جيلها من الأمريكيات. وهي تظهر ما تبطن فلا يخفى على أحد ممن يتعامل معها أنها رغم تقدمها الدراسي وصغر سنها، شديدة القلق لعدم زواجها إلى تلك اللحظة.

ويبدو أنني بعد ما يقرب من ثلاثة أشهر على وجودي ببيت الطلاب هذا كنت قد استعدت قدرتي على الاستمتاع بدور المشاهد. ولما كان المشهد في الغالب له صفة الطرافة والغرابة، وهو الأمر الذي أخافني في البدء، فقد رحت أتابع ما يجري بالاستغراق المنفعل المندهش المتوجس أو المفتون

لشخص يشاهد فيلما سينمائيا لأول مرة، استغراق لا ينفي الوعي بالمسافة الفاصلة بين المشهد والمشاهد.

وأنا في طريقي من المكتبة إلى برينس هاوس رحت أمني نفسي برسالة أجدها في الصندوق الصغير. سوف أدير القرص برسالة أجدها في الصندوق الصغير. سوف أدير القرص الذي يحمل الأرقام جهة اليمين حتى يستقر على رقم ٣ وأدير القرص الذي يحمل الحروف جهة اليسار حتى يستقر على حرف اللام فينفتح باب هذا الكهف السحري الصغير كاشفا عن رسالة لي أو رسائل! فإذا لم أجد شيئا أسرعت الخطى.

لمحت كومة من الأوراق عبر الطاقة الزجاجية الصغيرة. هل يمكن أن تكون أوراقا رسمية من إدارة الجامعة أو إعلانات تجارية؟ أشفقت على قلبي الذي رحت أسمع دقاته وأنا أدير القرص لفتح الصندوق. هذه رسائل، رسائل بالطائرة! حملت بين يدي خمسة مظاريف مستطيلة تحمل اسمي وعنواني مكتوبة بخط مريد المرتب الواضح. وسرت ببطء في اتجاه السلم قاصدة غرفتي. كانت الرسائل بين يدي هكذا في مظاريفها المغلقة هدية غمرتني، كالوردة

التي حملها لي ابني تميم بعد ذلك بسنوات وهو بعد لـم يـتم العامين وقال: « أنا باحبك يا ماما.. باحبك وعشان كده جبت لك وردة! » خمس رسائل تصل امرأة مـن الرجـل الـذي تحب، تصلها معا وفي الغربة. أيها أفتح أولا؟ فتحتها جميعا معا. غمرتني الدهشة، كانت قصائد! غمرتني الدهشة كما لو كنت أجهل حقيقة أن مريد شاعر أو كأنني لم أتلق منه فـي سنوات سابقة عشرات القصائد الجديدة بالبريد وبدأت أقرأ:

كما يدخل الماء الصخور
بقريتنا في فصول الشتاء
يشق له ألف درب بباطن أعلى الجبال
ويخلد فيها كثعلبة ترقب
ويصغي لوقع خطى الزارعين
وشق المحاريث للأرض عاما فعاما
ويخرج نهرا ونبعا ونافورة تسكب
ويهتف كالطفل:
ها قد أتيت، تعالوا اشربوا
فيشرب منه اليمام وأهل القرى
وقوافل ضلت، وسنجابة تلعب

وتنغمر الأرض بالبرتقال

وتحمر فيها الورود، وتنضج كل الثمار الوليده

كذاك حبك يدخلني

ويشرق وجه القصيده!

بعد يومين وصلتني ثلاثة مظاريف أخرى تحمل بـاقي أجزاء القصيدة التي تتجاوز أبياتها الخمسمائة بيت. ولـو أن القصيدة لشاعر آخر تحمل اسم امرأة أخرى لحملتها وانطلقت من غرفتي كالسهم البشير إلى الصحاب أطلعهم عليها. ولكن القصيدة كانت لي، مرآة مسحورة مد لي مريد بها يده عبـر المسافة وقال هي لك! فهل هذه حقا أنـا؟ كانـت رضـوى القصيد كزرقة النار صافية ومطلقة، وقفت أمامهـا موزعـة بين الزهو والحياء ولا زلت!

حملت القصيدة في قلبي ورحت أواصـل الفعـل، فـي قاعات الـدرس المـوزع بـين قسـمي الأدب الإنجليـزي والدراسات الأفرو – أمريكية، وفي المكتبة، ومركز الطلبة، والبيت الذي أسكن فيه.

في قسم الأدب الإنجليزي أتحرك داخل شحوب الألوان فالوجه الأبيض غالب، والردهات الطويلة مطلية بلون باهت،

وفي المساء حين نخرج من قاعات الدرس قاصـدين بـاب الخروج تبدو هذه الردهات، رغم التدفئة، بـاردة موحشـة، قابضة، لها في ضوء المصابيح الخافتة لون إنسان يحتضر.

وعلى العكس من ذلك كان المبنى الـذي يضـم قسـم الدراسات الأفرو – أمريكية، فالتدفئة هنا أعلى من العـادي، فلا أكاد أصل الدور الثالث حيث قاعات الدرس حتى أكـون متصببة عرقا. الجدران مطلية بألوان زاهية، منها الأخضـر والأزرق والبرتقالي وحتى الأسود فيها له بريق. وبـالمبنى فضلا عن القسم دار للحضانة لأطفـال العـاملين والطلبـة، والمركز البيئي الخاص بطلاب العالم الثالث، والورش الفنية. وكان مألوفا في هذا المبنى الجامعي إذن أن يشـاهد أطفـال صغار من أصل إفريقي أو لاتيني وهم يصعدون وينزلـون على الدرج. ولم يكن غريبا أن يسمع صوت ساكسـافون أو طبلة ينبعث من الدور الأرضي حيث الورش. ورغم شانغو الكلاب الوواف الكبير الذي يصطحبه أحد الأساتذة إلى قاعـة الدرس ويربطه بسلسلة إلى النافذة أثناء المحاضرة فقد ألفـت المكان ورحت أتحرك في ردهاته وقاعاته بتلقائية من عرف الشيء وارتبط به.

وإن كان احتفاء الآخرين هو دائما أمر مؤثر في النفس فإنه يكتسب في الغربة دلالة أكبر، ولقد كانوا في هذا القسم المختلف في جامعة نائية يحبونني ويحتفون بي لأنني أتيتهم من مصر. وأكد إمكانية التواصل السريع بيني وبينهم إحساسهم بأنهم وهم الأفارقة المقتلعون منذ قرون ينتمون بشكل من الأشكال لمصر وأنني وأنا المصرية بينهم لست غريبة عنهم.

كانوا يعتزون بإنجاز مصر القديم والحديث. وجدوا في مصر القديمة وحضارتها أكثر الوجوه إشراقا للقارة التي ينتمون في الأصل لها، وأمدتهم مصر عبد الناصر وحركة التحرر الوطني بسند مجدد. ولقد استندت النهضة السوداء في العشرينيات التي ارتفعت أصوات المناضلين إبانها تنادي بحقوق السود وتحررهم إلى حضارات القارة في مصر وإثيوبيا وممالك غرب إفريقيا ترد بها على أكذوبة أمريكا البيضاء القائلة بأن الأفارقة الذين حملوا قسرا من العالم الجديد هم بدائيون بلا تاريخ كانوا يعيشون في قارة مظلمة لم تعرف الحضارة.

وكان القسم ككل ذا توجه وطني تحرري واضح اختار له مؤسسوه اسم « قسم ديبوا للدراسات الأفرو – أمريكية » نسبة إلى ديبوا أبي الوحدة الإفريقية الذي دعا إليها بدءا مـن عام ١٩٠٤ وناضل من أجلها بالفعـل والكتابـة، وتعـرض للاضطهاد في فترة المكارثية وظل بلا جواز سفر حتى طلبه نكروما من حكومة الولايات المتحدة رسميا بعـد اسـتقلال غانا. وكان الرجل حينذاك على مشـارف التسـعين وراءه تاريخ شخصي حافل كباحث ومبدع ومؤسس لم يخفض فيـه رأسه لعاصفة الإرهاب الأمريكي وبقي يدعو لتحرر شـعبه الأسود في أمريكا وتحرر إفريقيا مـن سـطوة المسـتعمر وسطوة المستغلين من أبنائها حتى مات في غانا ودفن فـي أرضها.

٤

« إنه الثلج! ».

ندف صغير ناعم أبيض يتساقط في اتصال من السـماء إلى الأرض التي بدت مثل كعك العيد الذي ترشه أمي بعـد إنضاجه في الفرن بالسكر المطحون الناعم. وأنا خلف زجاج النافذة أتابع سكون الأرض في الأبيض موزعة بين فرحـة التجربة البكر وحزن الغريبة.

والشتاء يتوغل ولم يبق على نهاية الفصل الدراسـي إلا ثلاثة أسابيع. وأركض لأفي بالتزاماتي الدراسية، أركض إلى قاعـات الـدرس وإلـى المكتبـة وإلـى المطعـم وإلـى برينس هاوس، أقرأ على استعجال، وأكتب على اسـتعجال، وأحاول عبر الاتصال التلفوني أن أعرف الشروط الأنسـب للحصول على تذكرة للسفر اشتريها ولو بكل ما معي، وكـل ما معي أقل من أربعمائة دولار ولا زال جزء مـن قسـط الجامعة غير مدفوع طلبت تأجيله. سأسافر، هكـذا قـررت حتى لو لجأت إلى الاستدانة.

هكذا في صباح يوم شتائي قارس غـادرت أمهرسـت برفقة إحدى الزميلات، وجهتنا بوسطون. وبعـد أقـل مـن ساعتين من بدء رحلتنا وصلنا المدينة.

تركتني زميلتي في أحد الميادين العامة بعد أن وصـفت لي الطريق إلى فندق « ستاتلر هيلتون » حيث مكتب شركة الطيران التي أقصدها. كانت هذه هي المرة الأولـى التـي أغادر فيها أمهرست منذ وصولي إليها قبل ذلك بثلاثة أشهر. وبدت لي البلدة، وأنا أسير وسط ازدحـام المدينـة الكبيـرة وضوضائها، قرية جبلية صغيرة ونائيـة. منـازل صـغيرة مطلية باللون الأبيض، وسقوف قرميدية، وشارعان أساسيان متقاطعان تتجاور فيهما الكنيسـة وقسـم الشـرطة ومبنـى المطافئ والمقهى والبار وفندق اللورد جوفري ومحل الزهور ومحل تجهيز الموتى والمكتبات وبعض المحلات التجاريـة. بلدة هادئة لها صخبها المميز لغلبة العنصر الطلابـي علـى سكانها؛ فحيث يتقاطع شارعاها الرئيسان كليـة أمهرسـت، وعند أطرافها الشمالية جامعة ماساشوستس وعلى بعد أميال قليلة ثلاث كليات أخرى.

دفعت بالباب الزجاجي ودخلت إلى صالة فندق ضـخم، أناقة رواده تشي بالثراء. سألت عن مكتب الخطوط الجويـة الأولمبية وصعدت. بعد نصف الساعة نزلت وفـي حقيبتـي تذكرة سفر من بوسطن إلى أثينا ثم عودة إلى بوسطون فـي رحلة مخفضة الثمن تنظمها الشركة في فترة أعياد المـيلاد حتى يتسنى للمغتربين من اليونانيين زيارة أهلهـم. دفعـت بالباب الزجاجي مرة أخرى وخرجت إلى الشارع وبي فرحة طفل خارج من باب محل الألعاب وقد حصل علـى اللعبـة المحددة التي كان يريدها. فهاهي التذكرة معي ثمنها ثلاثمائة دولار، والطائرة تغادر بوسطون يوم ١٢/٢٣ وتعـود بعـد أربعة أسابيع. لم يكن بالإمكان تدبير شيء أفضل من هـذا. سأكتب لمريد لكي يرسل لي تذكرة للسفر مـن أثينـا إلـى القاهرة. ويبقى معي أقـل قلـيلا مـن مائـة دولار تكفـي مصروفاتي وشراء بعض الهدايا.

توجهت إلى مقر القنصلية اليونانيـة للحصـول علـى تأشيرة وحين انتهيت من ذلك كانت الساعة تقارب الثانية بعد الظهر. بدا لي مشروعي للتعرف على معالم المدينة أو زيارة متحف من متاحفها غير ممكن بما أنني كنت أنوي العودة إلى

أمهرست قبل المساء. تناولت وجبة غداء سريعة ثم رحـت أتسكع في الشوارع أتـابع الوجـوه وواجهـات المحـلات والبنايات الشاهقة، ثم توجهت إلى بارك سكوير حيث محطة الأوتوبيسات المركزية واشتريت تذكرة ودخلت إلى مقهـى المحطة لتناول كوب من القهوة. لماذا تبدو كل هذه الوجـوه بائسة هكذا؟ كان معظم الجالسين في المقهى بسطاء الملـبس تحمل وجوههم هذا التغضن المبكـر الـذي يميـز وجـوه الكادحين. تركت المحطة ورحت أتجول في المنطقة انتظارا لموعد الأتوبيس. بجوار المحطـة محـل كبيـر بواجهتـه الزجاجية العديد من الصور الطريفـة والتماثيـل الصـغيرة المضحكة موضوعها الجنس فـي الغالـب. دفعنـي حـب الاستطلاع فدخلت. سألني البائع:

- أية خدمة؟

- شكرا، فقط ألقي نظرة!

أحرجتني نظرة الرجل الممتعضة فخرجت إلى الشارع، سرت بضع دقائق قبل أن أنتبه إلى أنه شبه مقفر، أليس هذا غريبا في هذا الوقت؟ ثم إن بهذا الشارع محـلات تجاريـة على ما يبدو، تقدمت أكثر. صف من المحـلات الصـغيرة

تكتظ واجهاتها بصور عارية في أوضاع جنسـية شـائعة أو غريبة ومداخل صغيرة تعلن لافتاتها عـن عـروض أفـلام جنسية. طرأ ببالي أن هذا الشارع قد يكون جزءا من حـي الدعارة بالمدينة فشعرت بقلق لوجودي هكـذا وحـدي فـي المكان. هل هو الخوف الذي أطعمناه في طفولتنا ويفاعتنـا بأن هذا الجسد الأنثوي مهدد يخشى عليه؟ أم هو وعي المرأة النافرة بعيون رجال تتطفل على جسدها بالتملي الشره؟ أم هو قلق الريبة في مكان تجهل سننه وقانونه؟ رحت أغذ السـير عائدة إلى محطة الأوتوبيس وقد فهمت فجأة لماذا نظر البائع لي هكذا حين قلت له بجرأة وبراءة ريفيـة صـغيرة إننـي « فقط ألقي نظرة! ».

حين تحرك الأوتوبيس في طريقه إلى أمهرسـت فـي الخامسة مساء أرجعت الكرسي الذي أجلس عليه إلى الوراء قليلا وأسندت رأسي ومددت ساقي أمامي وأغمضت عينـي، آه لو أنني الآن جالسة هكذا فـي الطـائرة المسـافرة إلـى القاهرة!

قبل يومين من سفري كنت انتهيـت مـن الدراسـات المطلوبة مني. وفي صباح يوم شتائي بارد لم أنم فيـه مـن

الليل إلا ساعات ثلاثة رحت أراجع ما كتبت علني أجد خطأ مطبعيا أصححه. ثم وضعت كل بحث في مظروف بني كبير يحمل اسم أستاذ المادة، وغادرت البيت قاصدة قسـم اللغـة الإنجليزية أولا لتسليم واحد منها ثم توجهت بعد ذلك إلى قسم الدراسات الأفرو – أمريكية وأنا أمنّي نفسي بعد العودة إلـى البيت بنوم طويل لا يقطعه رنين منبه. ولكني حين تركـت غرفة سكرتيرة القسم وجدت نفسي أنزل الدرج وقد دبت في حيوية عشرة قرود. ألم أنته بتسليم هذه الدراسات من فصـل دراسي كامل؟ ألن أكون في القاهرة بعد أربعة أيام أو خمسة على الأكثر؟

تناولت كوبا من القهوة وعدت إلـى بـرينس هـاوس واستعرت دراجة إحدى الزميلات وقد قررت النـزول إلـى المركز التجاري لشراء بعض الهدايا. تجاوزت برينس وأنـا أجر الدراجة بجواري حتى وصلت لنهاية الشارع ثم انحرفت يمينا وركبت وكأن الدراجة – في الطريق المنحدرة من أعلى التلة – كائن مسحور يسير على الأرض طائرا. في طفولتي كانت لي دراجة كنت أحب ركوبها، ومع سنوات المراهقـة صار أبي يعترض على خروجي بها إلى الشـارع. وبقـي

ركوب الدراجة بالنسبة لي مرتبطا بمساحات الطفولة البريئة والثقة التلقائية في النفس التي صارت تخفت تدريجيا مع قلق المراهقة وشكوكها المتزايدة عما تستطيع تحقيقه. وإذ تطير هكذا الدراجة بي أو أطير أنا بها أو يطير انحدار التلة بكلتينا تعود إلي مشاعري الطفلية بالقدرة والتمكن والفرح المطلق بالوجود ونفسي.

« هل أنا دائما لا أحسب للعودة حسابا؟ » سألت نفسي بشيء من نفاد الصبر وأنا مضطرة للعودة سيرا على قدمي لأن ركوب الدراجة صار مستحيلا مع صعود التلة وما أحمل من مشتريات. علقت الأكياس على مقود الدراجة وأمسكت بعلبة في يد وصرت أجر الدراجة في الطريق الصاعدة باليد الأخرى.

بعد يومين غادرت أمهرست برفقة أحد الزملاء كان في طريقه إلى بوسطون، وقد قررت أن أقضي الليلة فيها استعدادا للسفر منها صباح اليوم التالي. تركنا أمهرست بعد الظهر، وكان الطقس دافئا نسبيا وممطرا. قطعنا الطريق في أكثر من ثلاث ساعات بسبب السيول، وكانت غزارة الأمطار وتساقطها المتصل على الأرض والسيارات تغلف الطريق

ببخار ضبابي وتحدث صوتا رتيبا يتداخل مع أزيز مساحتي السيارة في حركتهما المتصلة.

وحين وصلنا أخيرا إلى بوسطون كان الوقـت مسـاء وليس في المدينة من أثر الأمطار بل هواء عاصف قـارس. أوصلني زميلي إلى فندق، دفعت حساب الغرفة مقدما واتفقت عبر التلفون على سيارة أجرة تحملني في الصباح الباكر إلى المطار، ثم وضعت بعض القـروش فـي البائعـات الآليـة وحملت كوبا ساخنا من القهوة بالحليب وقطعة كيك وعلبـة سجائر وصعدت إلى الغرفة.

في صباح اليوم التالي ذهبت إلى مطار لوغـان حيـث حملتني الطائرة في رحلة داخلية قصيرة إلى مطار كنيـدي بنيويورك. ورحت أقطع الساعات في انتظار إقلاع الطـائرة اليونانية إلى أثينا في السادسة مساء. تجولت فـي المطـار الواسع كمدينة صغيرة، وتسكعت أمام بعض أكشاك الكتـب والمجلات، وتناولت الغداء في أحد محال الوجبات السـريعة بالمطار ثم بحثت لي عن مقعد لا تحيط به ضجة استثنائية.

جلست أدخن ثم ملت برأسي إلى الخلف إلى ظهر المقعد ومددت ساقي أمامي. لن ينادوا علينا لركوب الطـائرة قبـل

ساعة ونصف أو ربما أكثر. في المقعد المواجه لي كانت تجلس امرأة ممتلئة خمرية البشرة كامرأة من صعيد مصر. بوجهها تلك الخطوط المميزة والسابقة للأوان في وجه امرأة كادحة، كانت يداها أيضا تكشفان ذلك. لماذا تبدو هذه المرأة مصرية إلى هذا الحد؟ دخلتني رغبة ملحة في أن أذهب إليها وأسألها كيف أنها لم ترني وأنا أجلس أمامها. ألست أيتها المرأة السمراء الناطقة بالإسبانية من بلادي؟ كنت أحدق فيها وأعرف أنها من بورتوريكو. كل ما فيها ينطق بذلك، وجهها، ولغتها، وامتلاء ردفيها ووجودها الكادح في المستعمرة الأمريكية الكبيرة. هي عائدة إلى الجزيرة لا شك، لأي خطب يا ترى؟ أم هل هي زيارة للأهل والبلد ادخرت لها النقود سنة بعد سنة؟ والمرأة تقوم من مقعدها، هل أعلن عن قيام طائرتها؟ تسير ببطء نسبي وأنا أغمض عيني فأرى امرأة أخرى. هل هو شبه بينهما استوقفني أم هو الذي بالتداعي حمل لي صورة تلك الأخرى الأصغر في السن قليلا؟ امرأة من إحدى قرى الدلتا تقارب الخمسين أو تجاوزتها. هي أيضا لها هذه البشرة الخمرية الصافية وشعر أسود لا يبدو منه إلا الجزء اليسير من تحت منديل الرأس

المزين بالأوية، حاجباها هلالان في مطلع شهر قمري، وفي العينين كحل عربي أزرق، وتحت الشفة السفلى وشم أخضر، ولم أر أم فتحي إلا وكانت جميلة تنبعث منها رائحة طيبـة. فما الذي أتى بها إلي الآن هكذا وأنا جالسة مغمضة العينـين في هذه القاعة المكتظة بالمسافرين في مطار ج. ف. كنيدي؟

وأحمل حقيبة يدي وأسير باتجاه النفق الواصـل بـين المبنى وباب الطائرة. وأجلس أخيرا على المقعد ولكني بعـد لا أميل بظهري للخلف ولا أمد ساقي أمامي، أجلس معتدلـة وأربط الحزام وأنتظر الإقلاع.

والرحلة طويلة تقطعها الطائرة في عشر ساعات كاملة. ورحلة الشتاء مزعجة تخض الجيوب الهوائية الطائرة خضا فيبدو في كل مرة وكأنها سوف تطب لأسفل ثم تهوي. أربك معدتي تكرار ارتجاجنا المباغت والمتكرر، وزادني الإرهاق وقلة النوم ضيقا حتى صرت أشعر بالاختنـاق فـي ظـلام الطائرة التي أخلد ركابها للنوم. أضيء المصباح الذي فـوق رأسي فأشعر باختناق أكبر.

ثم بدأنا ندخل في مساحات الفجر، بنفسج أزرق لا يدوم إلا قليلا، يفضي لنهار طالع بمـزج مـن رمـان وليمـون

وبرتقال. والمرأة اليونانية الجالسة بجواري والتي أمضت الرحلة نائمة دبت فيها الحياة فجأة وصارت تنظر من النافذة وتحدثني، وتحدث نفسها، وتحدث من يجلسون أمامها وخلفها، وتكرر ما بين عبارة وأخرى: « كم هي رائعة اليونان! » وكان المشهد بالفعل رائعا، وليس فقط في عيني المرأة العائدة للبلاد بعد غياب. فالجزر غارقة في وهج شمسي كأن البلاد قدت من ذهب أو كأن البحر شمس. فهل رأى اليوناني القديم بلاده هكذا من فوق قمة جبل فبدا له أن أبولو الفتى المتوهج الخصلات قادم إليه في مركبة من ذهب؟ ولا يأخذني من المشهد إلا الصخب المفاجئ لركاب الطائرة، كانوا جميعا، باستثناء اثنين أو ثلاثة، يونانيين عائدين لقضاء العيد في بلادهم.

في الليل خيم السكون على الطائرة، ناموا أو صمتوا برفقة الأحلام أو المخاوف. وعندما بدأت الطائرة تحلق فوق اليونان لم يبق أحد منهم جالسا على مقعده، وأخذوا يتبادلون الحديث الصاخب، ثم بدءوا يغنون معا والطائرة تستعد للهبوط والمضيفات يكررن الطلب بأن يجلس الركاب

ويربطوا الأحزمة. وبدا وكأنهن - وسط هذا الفرح العـام - يطلبن من الواحد أن يقيد روحه.

وعندما لمست العجلات أرض المطـار دوى تصـفيق الركاب وكلمات الإعجاب والشكر لقائـد الطـائرة. ورغـم تعليمات المضيفات بالتزام الأماكن راح كل واحد منهم يفـك حزامه وينهض من مقعده تهيؤا للنزول.

غادرت الطائرة يملؤني شعور بالوهن وبأنني هشة، هل هو الإرهاق بعد ليلة بلا نوم أم هو الضوء السـاطع لهـذه الجزر وتألق الأبناء في حضرتها؟ ربما كنت مرهقـة مـن السفر الطويل، أو لعلها العودة إلى مصر تفوق قدرة القلـب الصغير.

حملتني وحقيبة سفري سيارة أجرة إلى فندق متواضع لا يبعد كثيرا عن ميدان الدستور بقلب أثينا. كان علي أن أنتظر حتى صباح اليوم التالي قبل أن أشرع في بحث أمر سـفري إلى القاهرة. أردت أن أتحمم فلم أجد إلا مياها باردة. غسلت وجهي ويدي وساقي ونمت ثم خرجت في جولة سياحية فـي المدينة. عدت ثانية ونمت.

حين خرجت إلى الشارع صباح اليـوم التـالي كانـت المحال التجارية لا تزال مغلقة، وكذلك معظم المقاهي التـي مررت بها. أردت أن أفطر، لم يكن بالفندق الذي نزلت فيـه مطعم، وجدت مكانا تناولت فيه كوبا من الشاي وشـريحتين من الخبز والجبن المؤكد أن مكاتب شركات الطيران لا تفتح قبل الثامنة صباحا. أنهيت إفطاري والسـاعة لـم تتجـاوز السابعة والنصف. رحت أتسكع في الشوارع وأنتظر. بـدأت « بمصر للطيران » لا زال مكتبها مغلقا. درت على مكاتب الشركات الأخـرى، « الأولمبيـة »، « ايـر فـرانس »، « آليتاليا » لم يكن لي تذكرة عند أي منهـا. بـدا لـي أن الأرجح أن يكون مريد قد أرسل لي بالتذكرة عـن طريـق « مصر للطيران ». أخيرا في التاسعة والنصف ذهبت إلـى مكتب الشركة فوجدته مفتوحا وسألت إن كانت هناك تـذكرة باسم رضوى عاشور، راحت المرأة تقلب فيما لـديها مـن برقيات ثم قالت:

- هل أنت متأكدة؟
- متأكدة!

خرجت من مكتب « مصر للطيـران » وقـد اخـتلط ضيقي بالحيرة والتوجس والقلق. ترى هل مريد بخير؟ لعـل برقيتي لم تصله، ماذا أفعل الآن؟ هل يكفي كـل مـا معـي لشراء تذكرة ذهاب فقط إلى القاهرة؟ علي أن أحسب أجـرة الفندق والسيارة التي تحملني إلى المطار. آمل أن يكون مريد بخير. فكرت أن أجلس في أحد المقاهي لكي أفكر في هدوء في الخطوة التالية. في الطريق لمحت لافتة « سويس اير » التي فاتني دخول مكتبها. دخلت وتوجهت بالسـؤال لشـاب وسيم صغير السن في زي المضيفين الأزرق الداكن. قال:

- ليس هناك تذكرة باسمك. من يدري لعل برقيتك إلـى القاهرة لم تصل.

سكت برهة ثم قال:

- أستطيع إرسال برقية على التلكس إلـى مكتبنـا فـي القاهرة فيتصلون تلفونيا بالشخص الذي سـيدفع ثمـن التذكرة. وأنت من ناحيتك تستطيعين الاتصال تلفونيـا بالقاهرة لتأكيد الأمر.

ووصف لي الشاب مكان مكتب التلفونات الدولي وقلت له:

- هل أعود لك بعد ذلك أم أتصل تلفونيا؟

- الساعة الآن العاشرة، طائرتنـا للقـاهرة تقلـع فـي الخامسة، اذهبي إلى المطار قبل الثالثة. إذا وصلنا رد فسيعطونك تذكرة للسفر هناك وتسافرين مباشرة، لدينا أماكن.

كان الشاب ودودا للغاية، شكرته واتجهت إلـى مكتـب التليفونات حيث اتصلت ببيت أصدقاء لنا في القاهرة وطلبت أن يبلغوا مريد بأمر التذكرة. وعرفت أن برقيتي لم تصـله وأنه كان قلقا لعدم وصول أية أخبار مني.

قلت لموظف الفندق وأنا أدفع له أجـرة الليلـة التـي قضيتها: « لا تعجب لو وجدتني أعود إليك بحقيبة السفر بعد عدة ساعات! » وضحكت.

ولكن قلبي كان ثقيلا، وكذلك الحقيبة، وأنا أسـير إلـى مفترق طريق يجعل حصولي على سيارة أجرة أيسر.

في المساء يحتفلون بليلة عيد الميلاد، والشوارع صاخبة ومزدحمة وسيارات الأجرة قليلة. وأنا هذا المساء قد أدخـل بيتي عائدة لألفة الوجوه والأصوات، وقد أبقى هنا أمر مـن شارع موحش وبارد أنظر فيه إلى النوافذ الكثـار المغلقـة

دوني على فرحة عيد صغير لأصل الفنـدق وأصـعد إلـى حجرة باردة يؤرقني في ضوئها الليموني الشـاحب عـبء الساعات. بلعت الغصة في حلقي ومعهـا تيـار شـعوري الكئيب، لماذا استباق الأحـداث؟ وسـألت سـائق التاكسـي المنطلق بسرعة مقلقة عن المدة التي تستغرقها الطريق إلـى المطار.

راح الشاب الذي يعمل لفرع شركة « سـويس ايـر » بالمطار يكتب في تذكرة السفر التي سيعطيها لي، ورحت أنا في فرحي، أنظر إليه بحب وقد بدا لي بشيرا يونانيـا قـديما يأتي لأهل المدينة بالخبر المفاجئ السـعيد. وحـين سـلمني التذكرة شكرته واتجهت لتسليم حقيبتي وخـتم الجـواز. لـم يبئسني إعلان تأخر إقلاع الطائرة لمدة ساعتين. فالليلة أنـا في القاهرة والليلة عيد، والمرأة لا تضحك وحدها بلا سـبب ولا ترقص هكذا فجأة وسط المطار المكتظ بالمسافرين إلا إذا فقدت عقلها، وأنا وا عاقلة ولكني أضحك، وبي رغبة تلـح في الرقص وإعلان الفرح. أجلس لآكل شيئا وأحتسي فنجانا من القهوة ولكني أجد السكون على كرسٍ صـعبا وابـتلاع الأكل في هدوء أصعب، أقوم أتجول في المطار أشتري إناء

فخاريا صغيرا بني اللون مزينا بمثلثات وخطوط سود، إنـه جميل جميل جدا، يصلح لمكتب مريد يضع فيه أقلامه. أيهـا الصانع اليوناني سلاما، أيتها اليونان التي لم أرهـا سـوى لساعات وبقلب مثقل، سلاما وإلى عودة!

تنبهت إلى أن الرحلة لا بد تقارب نهايتهـا والمضـيفة تحمل سلة بها فوط قطنية معقمـة ومبللـة بالمـاء الـدافئ. ابتسمت لي المضيفة وناولتني واحدة مسـحت بهـا وجهـي ويدي، قمت إلى دورة المياه لأصلح من هيئتـي قبـل بـدء الطائرة في الهبوط. « ترى كيف سأبدو لهم بعد هذه الشهور من الغياب؟ » تساءلت وأنا أقف أمام المـرآة التـي تعلـو الحوض المعدني الصغير في دورة المياه. أنـا الآن أنحـف قليلا، شعري لا زال قصيرا لا يغطي أذني، لماذا وجنتـاي متوردتان هكذا؟ ليستا متوردتين بل إن لونهما أحمر، آمل ألا أكون مريضة، كحلت عيني وصففت شعري وعـدت إلـى مقعدي.

ربطنا أحزمتنا، وبدأت الطائرة تستعد للهبوط. وعلـى البعد بدت القاهرة كمدينة مستحيلة من عناقيد ضوء مستوحد وسط بحر الظلام الصحراوي. لم أر المدينة من الطائرة في

الليل قط. وأنا صرت اثنتين: واحدة مقيدة إلى مقعد طائرة محلقة في سماء المدينة، وأخرى على أرضها مثبتة فيها كجذع شجرة أو كحجر في جدار. وعيناي الناظرتان عبر زجاج النافذة الصغيرة تحدقان عبر الظلام والضوء بحثا عن النيل الذي لا تراه وتعرف أنه هناك. وتقترب الطائرة من ممرات المطار حتى تلامس عجلاتها الأرض لتندفع في سرعة مفاجئة ثم أخيرا تتوقف وأقوم من مقعدي، ألبس معطفي بهدوء كأن باب الطائرة لن يفتح بعد لحظة، كأن الحاجز الحديدي للمنطقة الجمركية لا يفضي للمدينة والأحباب. أسير بهدوء مع الآخرين باتجاه باب الطائرة... كأن قلبي لا زال معي.

٥

الطريق نفسها والحركة الوئيدة نفسها. أجلس في الظلام منكمشة أحدق في الحركة الرتيبة لمساحات المطر على الواجهة الزجاجية العريضة للأتوبيس. أمطار غزيرة وليل موغل. لم يعد في الأتوبيس إلا السائق وأنا، وهذا المطر لا ينتهي ولكن الطريق التي بدت عقابا أبديا توشك أخيرا على الانتهاء. أقوم من مقعدي وأقف بجوار السائق أقول له:

- سأقف في المحطة!

لم يخطر ببالي قط أن السائق قد يرفض طلبي، ولكنه يمر من أمام برينس هاوس ويتجاوزه ثم ينحرف يمينا إلى شارع آخر ولا يتوقف إلا في المحطة المقررة. ينزل ويفتح بطن السيارة ويسلمني حقيبتي دون أن يفتح أحد منا فمه كأننا في مشهد تمثيلي صامت، ثم يركب الأتوبيس ويمضي.

لا بد إذًا مما ليس منه بد. أحمل حقيبة السفر في يد وحقيبة يدي في اليد الأخرى وأسير بحذر شديد. الأرض مغطاة بطبقة زجاجية رقيقة من ماء المطر المتجمد بفعل البرودة، والمطر المنهمر صار بردا، وأنا أخشى أن تزل

قدمي فأسقط على ظهري. الساعة تجـاوزت الواحـدة بعـد منتصف الليل. أسير بضع خطوات ثم أقف واضـعة حقيبـة السفر على الأرض ثواني ثم أواصل.

في الأتوبيس، في الطريق من بوسطون، بدا لي بؤسـي مكتملا. كنت شديدة الإرهاق بعد يوم طويل من السفر بدأتـه قبل السادسة صباحا في انتظار السيارة التي تقلني مع غيري من الركاب من مقر الشركة الأولمبية في أثينا إلى المطـار. أقلعت الطائرة في التاسعة صباحا ووصلنا نيويورك بعد أكثر من عشر ساعات من الطيران المتصـل. هبطـت الطـائرة متأخرة ورحت أركض لاستلام حقيبتي والانتقال إلى مبنـى آخر لكي ألحق بالطائرة المسافرة إلـى بوسـطون. أقلعـت الطائرة ثم هبطت وحملتني سيارة أجرة مـن المطـار إلـى محطة الأتوبيسات المركزية حيث ركبت آخـر السـيارات المغادرة إلى أمهرست.

وأخيرا وصلت إلى الباب الخلفـي لبـرينس هـاوس. أخرجت المفتاح من حقيبتي فتحته ودخلت. وأنا أصعد علـى الدرج إلى الدور الثاني حيث حجرتي بـدت لـي الجـدران المصبوبة من الأسمنت المخلوط بالرمال والحجارة الصغيرة

رمادية بشكل قابض، "غريب أنني لم ألحظ مدى كآبة هـذه الجدران من قبل! " قلت لنفسي وأنا أتجه عبر الممر الطويل إلى حجرتي. ولكني قلت أيضا وأنا أدير المفتاح فـي بـاب الحجرة: « على الأقل هنا تدفئة والأرض مغطاة بالسـجاد لا تثير الخوف من السقوط المفاجئ وانكسار ساعد أو ساق ».

ولكن ما إن أضأت النور ورأيت الحجرة حتى رأيـت أيضا أن زيارتي للقاهرة قد صارت ورائي، ورائي مباشـرة في وقت يتعين علي فيه أن أتقدم في الطريق الممتـدة فـي الاتجاه المعاكس... على الأقل لشهور طويلة قادمـة. « الآن علي أن أنام! » قلت وأنا أقلب في الرسائل التي وصلتني في غيابي واستلمتها زميلتي ووضعتها بعناية على مكتبي قبل أن تسافر هي الأخرى لقضاء العيد مع أهلها. « الآن علـي أن أنام ». كررت لنفسي وأنا أنظر إلى الساعة التي تجـاوزت الثانية. بدا لي جو الغرفة خانقا. فتحت النافذة. « ليت زميلتي هنا! » جلست على السرير دون أن أبدل ملابسي وأنا أفكـر أنه مرة أخرى صار عنواني ٢٢٤ برينس هاوس، جامعـة ماساشوستس.

رحت أعيد ملابسي من حقيبة السفر إلى الدولاب وأنـا أفكر أنه بهذا تكون دائرة السفر قد أغلقت ذهابا وعودة ولـم يبق أمامي سوى بدء جديد. أخرجت شالين قطنيين أحـدهما برتقالي والآخر أزرق، قلت وأنا أطويهما: البرتقالي لسوزي والأزرق لآنا، ووضعتهما في أحد الأدراج. مـا إن أغلقـت الدرج حتى بدا لي أن شيئا من رائحة البخور ما تزال عالقة بهما. كنت قد اشتريتهما قبل سفري بأيام من خان الخليلـي. فتحت الدرج ثانية وانحنيت عليهما. التبس الأمر علـي، لـم أعرف إن كانت الرائحة بأنفي أم فيهما. لماذا تباغتني رشاقة مئذنة مسجد الحسين في كل مرة أراها كأنني لم أرها أبدا من قبل؟ ولماذا يعاودني الإحساس نفسه بأنين منفية من تـاريخ الأزهر كلما لمحت أفاريزه ومآذنه ولو في الخيال؟ جلسـت على حافة سريري، عند العمود يجلسون، كل مجموعة تحيط بأستاذها، تنصت إليه، وتملأ دلاءها وتـروح إلـى جفـاف الأرض ترويه. وأنا الحبيسة في تاء التأنيث لم تخط قـدماي العاريتان أبسطة المسجد الألفي إلا كزائرة غريبة، ولا أستند ظهري إلى عمود رخامي بباحته، ولا قلت ظهيرة صيف في ظلّه أحلم بالممكن والمستحيل، ولا دعوت مع الداعين لنصرة

قائد في الحرب أو بسقوط طاغية من الحكام. قلت هذا الألفي تاريخ مغلق دوني.

قمت لأفتح باب الحجرة، كانت إحدى زميلاتي بالبيت جاءت تسلم علي. ذهبت وعدت إلى حقيبتي أعيد ما بها من ملابس إلى الدولاب، وحين انتهيت أقفلتها ووضعتها تحت السرير. الآن علي أن أرسل بالأفلام للتحميض. أمسكت بثلاثة مظاريف، كتبت عليها عنوان مكتب تحميض الصور. بعد أسبوع أو عشرة أيام على الأكثر تصل الصور بعد تحميضها. صور لي ولمريد ولأصدقائي، صور ونحن نجلس بجوار النيل ونحن نعبر الطريق ونحن في البيت، صور التقطتها في أثينا لمدرجات مسرح ديونسيوس وللأكروبوليس ولأعشاب خضر يانعة تنبثق من بين أحجار أرضية المعبد العتيق، صور للشمس الغاربة على أعمدة معبد الإله بوسيدون إله البحر في رأس سوينون حيث لقاء البحر الأبيض ببحر إيجه. كيف ستبدو اللحظات والمشاهد قد تثبتت نهائيا داخل الصور؟

كان معي آلة تصوير أصغر من حجم الكف ورحت أصور بها المشاهد في فرح طفولي ليس فقط لأن الآلة كانت

جديدة، ولكن أيضا لأنني كنت فرحة مقبلة. رغم ذلـك لـم أجرؤ على تصوير شيء مـن معـرض الغنـائم بـأرض المعارض بالجزيرة حيث عرضت الصواريخ والدبابات التي خلفها الإسرائيليون شرق القناة، وحيث شيد نموذج مصـغر من خط بارليف يشرح عليه جندي أسـمر صـغير السـن خطوات اقتحام الجنود المصريين للساتر الإسرائيلي.

بدت الدبابات، في ضوء شمس ساطعة، لامعة ومتوهجة وقد اعتلاها عشرات الأطفال بملابس زاهية وراحوا يلعبون في صخب. وكأن الدبابات هي أرجوحـات العيـد الملونـة والمزينة بالشرائط الورقية التي تنصب في المناسـبات فـي الساحات الشعبية. والجو الاحتفالي في المكان يصل للقلـب فينقسم، هذا نصيب الحزن وذاك للفـرح ورجـال الرمـاد الجوف يعلقون الأوسمة ويقايضون دم الجنود وتاريخ الـبلاد بحفنات من القش تصلب أعوادهم المتهاوية. قال صديقي:

- احتفظي بشيء من مرارتك للغد، فالبقية تأتي!

كان مريد قد احتفظ لي بكل الجرائد التي صدرت فـي تلك الفترة. ومن عشرات الأعداد التي وضعها أمامي لم يكن قد وصلني في أمهرست إلا عددان من « الأهرام » بعد أكثر

من شهر من صدورهما. اطلعت عليهما بالمكتبة التي كانت تصلها الجريدة بشبه انتظام في الظروف العادية. كان الوقت مساء والمكتبة مضاءة بمصابيح النيون وأنا أقرأ بتوجس نص خطاب للسادات. انتهيت من قراءة الجريدة وقد تمكن مني خوف شديد، غادرت مكاني وقبلتي باب المكتبة للخروج، سمعت صوتا يكرر اسمي. إنه زميل مصري من زملائي، بادرني:

ـ خير، هل أنت مريضة؟

- كنت أقرأ الأهرام. يقول « ياخدوا عشرة كيلو من عندي! ».

- من الذي يقول؟

- السادات، كنت أقرأ خطابه، إنه يتكلم عن الأرض، كأنها ماله الخاص يتصرف بها كما يحلو له!

دعاني زميلي لاحتساء كوب من القهوة ولكني اعتذرت، فقد كنت أريد العودة إلى حجرتي لكي أختلي بنفسي وأحاول أن أفهم إذا كان ما قرأت هكذا مخيفا أم أنها الغربة تتضخم الأشياء فيها.

ولم تكن الغربة السبب. قال لي مريـد: « منـذ ألقـى السادات خطابه في ١٦ أكتوبر يعلن وقـف إطـلاق النـار واستعداده للتفاوض، بدا واضحا معنى الحرب وفي أي سياق اتخذ قرار خوضها. قلت لأصدقائي هنا ونحن نشاهده يلقـي خطابه في التلفزيون، إنني أشم رائحة كريهة فقـالوا إننـي سريع الانفعال، أبالغ في كل شيء. ويوم ١٨ التقيت بصديق من الكتاب فبادرني قائلا: « أليس ما حدث يا مريد رائعا؟ » فقلت له: « إنه مخيف! » قال: « لا تكن غرابا! ». فقلـت: « أرى ما يستحق أن أنعق عليه، فليكن، أنا الغراب! ».

وألبس معطفي وأغادر برينس هاوس أستنشـق بعـض الهواء البارد فالقلب ثقيل والعقل مثقل. أسير فـي الشـوارع الشتائية العارية إلا من ثلوج متراكمة على الجـانبين حتـى أصل إلى مركز البلدة، وأدخل إلى أول مقهى في طريقـي، أجلس على أحد الكراسي العاليـة وأسـند سـاعدي علـى العارضة الخشبية الممتدة، وأطلب من النادلة كوبا من القهوة، أفتش في جيوبي لعلي أجد قرصـا منسـيا مـن الأقـراص المسكنة لآلام الرأس، وأضع يدي أمامي أحدق فـي الخـاتم المعدني الذي اشتريته من معرض الغنائم وقيل لنا إنه مـن

حطام الطائرات الإسرائيلية، أحدق فيه في بنصر يدي اليسرى ملاصقا لخاتم الزواج وأنتظر كوب القهوة الأمريكية.

بعد يومين من وصولي، بدأ معظم الطلاب يرجعون إلى قواعدهم للانتظام في فصل الربيع الدراسي الممتد من بداية فبراير حتى نهاية مايو. وعاد للحرم الذي بدا قبل يومين مقفرا شديد البرودة صخب الوجود الطلابي. وفي اليوم المحدد للتسجيل في « الكورسات » عم المكان حالة من التيقظ والحيوية تشارف الفرح، هل هي حيوية هذا العدد الهائل من الفتيان والفتيات الذين يثرثرون ويتضاحكون ويتجادلون أم أنها بهجة اللقاء بالصحاب والأماكن أم هي البدايات هكذا دائما؟ الطلاب يروحون ويجيئون في ممرات الحر وردهات المباني ويحتشد عدد كبير منهم في المبنى المخصص للتسجيل يقفون في طوابير، كل في انتظار دوره.

هذا الفصل الدراسي أيضا سجلت في أربعة «كورسات» «كورسات» في الأدب الأمريكي الأسود و «كورس» في الأدب النيجيري و«كورس» في نظرية الأدب الرومانسي، ملأت الاستمارات وسلمتها ثم اتجهت إلى المبنى المخصص

لبيع الكتب المقررة. أخذت ما يخصني من كتب وبعض الكتب الأخرى أيضا لم أستطع مقاومة إغراء شرائها، ووقفت في الطابور في انتظار دوري لدفع الثمن. الكتب المصفوفة على أرفف خشبية وعلى الأرض يعلو كل مجموعة منها لافتة تحمل اسم القسم ورقم «الكورس» والمكان تعيدني إلى محل بيع الكتب بالمدرسة التي كنت أدرس بها وأنا طفلة. في الدور الأرضي محل كبير يبدو، وهو الممنوع علينا دخوله والمليء بالكتب الجديدة والكراسات والأقلام والألوان، قبو سحري مستحيل، نقف عند أعتابه نلمح من شباك له قضبانا حديدية بعض كنوزه، ونطلب هذا الكتاب أو ذاك لشرائه. وفي كل عام قبل بدء السنة الدراسية، يقف أولياء أمورنا في طابور طويل بالدور الأرضي أمام عارضة خشبية تسد باب المحل ليشتروا لنا الكتب المقررة. يدفع أبي ثمن الكتب. وأعود فرحة إلى البيت بحقيبتي الجلدية وقد انتفخت الكتب ذات الرائحة المميزة. في البداية كانت الصور هي التي تستهويني، ثم عاما بعد عام أخذت الصور تقل ورحت أروض نفسي على قبول الكلمات التي بدأت أفك رموزها. ولكن دائما، سواء

توفرت الصور أو غابت، كنت أحب رائحة الكتب الجديـدة حين أقلّب صفحاتها فتصل الرائحة تلقائيا إلي أو أقرب أنفي قاصدة من الورق. وللكتب القديمة أيضا رائحة نفاذة، تختلط بذرات التراب في الغالب، تملأ أنفي وأنا أبحث عن العتمـة النسبية بين الرفوف المثقلة لمكتبة جامعة عـين شـمس أو جامعة القاهرة أو الجامعة هنا. ولكن هذه الرائحة مختلفـة، أحبها وهي تنفذ الآن إلى أنفي ورئتي، وأضع الكتب المقررة التي اشتريتها في كيسين بنيين كبيرين من الورق المقوى ثم أخرج إلى الطريق.

كنت لا زلت أتأمل كتبي الجديدة المبعثرة حولي فرحـة بامتلاكها حين دق جرس بـاب حجرتـي ودخلـت إحـدى صاحباتي البورتويكيات صـاخبة هـذا الصـخب اللاتينـي المحبب، وقالت بلهجة آمرة:

- لا تتناولي عشاءك الليلة، لأننا سنتعشى بالمجان!

قلت لها ضاحكة:

- هل معنى ذلك أنك: اكتشفت ملجأ لرعاية الطلاب؟

- مطاعم الجامعة مفتوحة بدءا من اليوم ولكن المشرفين لن يطالبوا أحدا ببطاقة الاشتراك، لأن الإدارة لم تنتـه

من إعداد البطاقات. ونحن لا ننوي الاشتراك، ولكننا سنذهب لتناول وجبة بالمجان. موعدنا الخامسة.

وقبل أن أفتح فمي كانت قد أغلقت الباب واختفت.

وفي الخامسة نزلنا من برينس هاوس متوجهين إلى المطعم الأقرب للبيت. كنا عشرة طلاب من ستة بلدان مختلفة جمعتنا الغربة والصحبة وقرار دعوة أنفسنا على العشاء على حساب إدارة الجامعة. وكانت فكرة الأكل بالمجان في الولايات المتحدة حيث كل شيء يكلف نقودا، كفيلة بإثارة حالة من الفرح الطفلي العام. قالت إحدى الصديقات: قلت لتريزا البولندية أن تأتي معنا فأبدت دهشة شديدة وقالت لي: لا يصح أن نفعل ذلك. هذه سرقة، هل تصدقون! وكانت دهشة الجميع بسلوك تريزا لا تقل عن دهشة تريزا بسلوك الجميع.

وقفنا في انتظار دورنا في موكب مستقل بذاته داخل الصف الطلابي الطويل، ثم حمل كل وجبته وجلسنا حول مائدة كبيرة اتسعت لنا جميعا.

في الفصل الدراسي السابق كنت أتناول في مطاعم الجامعة وجبتين يوميا باستثناء أيام السبت والأحد ثم صرت،

بعد أكثر من ثلاثة أشهر من الأكل فيها، لا أطيق دخولها. تبئسني جلستي وحدي وأنا أتناول الأكل كأنني محكوم علي بالعزلة، وتستفزني الوفرة غير العادية للأكل وكمية الراجع منه الذي يلقى به في القمامة. ولكنني وأنا جالسة بين هؤلاء الصحاب صرت مثلهم فرحة ومقبلة وصاخبة وكأن في جلوسنا هكذا معا وعدا تلقائيا بتآزر، كلنا في وحشة الغربة نحتاج له، لم يقل أحد منا شيئا عن ذلك. إلا أنه يبدو أننا جميعا التقطنا ذلك الوعد وتشبثنا به، فرحنا بعد ذلك كل أسبوعين أو ثلاثة، أو كلما جدت مناسبة، نقيم حفل عشاء جماعي في إحدى الحجرات المخصصة للدراسة في برينس هاوس. نلصق المكاتب في بعضها فتصبح مائدة ممتدة كموائد الأفراح، ننسق عليها الأطباق والأكواب الكرتونية والملاعق والشوك والسكاكين البلاستيكية وفوط الورق، ووردة هنا أو هنا، ثم يدخل صاحب الدعوة أو صاحبتها مع مرافق أو مرافقين حاملين صواني الأكل الساخن من المطبخ. موكب صغير يلقى التهليل والبشر. هذا الأكل المطهو في ورق الموز. وذاك الروم البورتوريكي الأبيض الممزوج بماء جوز الهند وعصير الأناناس جغرافية

تدعونا ندخل إليها بصحبة الأبناء وننتهـي وهـذه الباميـة المطبوخة باللحم والطماطم، وتلك الحلوى الشرقية أعدها في زهو الجدة تطبخ للأحفاد – أنا التي لم أحب الطهو يومـا – وأعرف وأنا أحملها لأضعها على المكاتب المتلاصقة أننـي أمنح نفسي في الغربة، وأمنحهم، مساحة من الوطن البعيـد أسكن إليه ويسكنون.

٦

مارس في البدء، ومريد يكتب لي من القاهرة عن خطى الربيع والصيف فيه. وأنا هنا أستيقظ في الصباح أشهد تساقط الندف الثلجية الناعمة والأرض لا زالت تسـكن الأبـيض، أراقبها من خلف الواجهة الزجاجية لحجرتي ويفاجئني أننـي أحب المشهد. أغسل وجهي وأشرب قهوتي وألبس معطفـي وأذهب. هذه المساحة الممتدة ذات المباني الكثيرة التي بـدت لي ساعة وصولي كمتاهة إغريقية أستعيض فيها عن خـيط آريان الأسطوري بخريطـة للجامعـة تعرفنـي بالجهـات والأماكن، صرت الآن أعرفها وآلفها، من العمارات الحديثة المتجاورة المسماة بالأبراج لعلوها الشاهق والتـي يسـكنها آلاف من الطلبة ذات السقوف القرميدية والتي لا يتجاوز أي منها الأربعة طوابق في الشمال الشـرقي، وبينهمـا تمتـد الجامعة بمبانيها المتعددة التي أنشئت على مـدى عشـرات السنين منذ تأسيسها في منتصف القرن الماضي.

حين وصلت إلى الجامعة أواخر الصيف بدت البركة في قلب الحرم الجامعي كوجود خيالي فز في حكاية من حكايات الأطفال، تنعكس في صفحتها المترجرجة صورة البجع السابح فيها، والشجر المحيط بها، والكنيسة الصغيرة بسقفها القرميدي الداكن وبرجها المدبب. ولكن ماء البركة، في صقيع الشتاء لا يعكس إلا بياضه. والكنيسة الحجرية تغطي سقفها وبرج ناقوسها الواحد الثلوج، وراحت عن جدرانها الرمادية الداكنة خضرة اللبلاب الذي لم يبق منه إلا فروعه الجافة تلتف صاعدة حول الحجارة العتيقة. الكنيسة و «الكلية الجنوبية» المواجهة لها والمبنية بذات الحجارة هما الأصل في المكان وأقدم ما فيه، أما المكتبة المجاورة فهي أحدث ما في الحرم الجامعي.

بناء شاهق يجرح خصوصية المكان بشكله التابوتي المنتصب، وتتنافر حداثته المعمارية وطوابقه الستة والعشرون مع كل ما يحيط به. قالت إحدى الصديقات بخبث ساخر:

- إنه ولع المهندس برموز الذكور!

فقلت لها وأنا أبتسم:

- بل هو الولع الأمريكي بأفعل التفضيل، تماما كاللافتات المعلقة في أسفل بناية الأمباير ستيت بنيويورك: «هذا المبنى أعلى من كذا، وأكبر من كذا!» من المؤكد أنهم ليسوا بحاجة لمكتبة من ستة وعشرين طابقا ولكـنهم بحاجة لأن يقولوا لدينا أعلى مكتبة في المنطقة، أو في شمال شرق البلاد، أو في البلاد كلها!

كان مبنى كريها فعلا يثير علوه الشاهق دوامة هوائيـة مقيمة تجعل المرور بجواره أمرا مزعجا. أما مـن الـدخل فكان بالمكتبة العديد من التسهيلات، منها توفر عدد هائل من الكتب والمراجع والدوريات وحتى اسـتعارة أي عـدد مـن الكتب في نفس المرة، وتوفر آلات التصـوير الالكترونـي وإمكانية التصوير بقروش زهيدة، ثم سهولة الحصول علـى المواد غير المتوفرة في مكتبات جامعات أخرى أو المكتبات العامة عبر قسم متخصص، وذلك بطلـب اسـتعارتها مـدة محددة أو الحصول على نسخة مصورة منها.

قلت لنفسي وأنا أنتظر المصعد ليحملنـي إلـى الـدور الأرضي بالمكتبة: ترى أي زمن جائر هذا الـذي يجعلنـي أقارن بين هذا التابوت الحجري وذاك الآخر العتيق كجـذع

شجرة طاعنة في السن يحمي في دكنته خشونة نسغنا الحي؟ وأرى المبنى ذا المعمار الإسلامي كما يلوح لي وأنا أقتـرب من ميدان باب الخلق. ثم تأتيني رائحته الرطبـة المميـزة، ودرجه المتآكل، ومصابيح النيون التـي تضـيء ممراتـه وقاعاته صباح مساء، والمصاحف المفتوحة على صـفحات منسوخة بماء الذهب والمعروضة في الممر الطويـل الـذي ضم الفهارس، ودورة المياه التي سقط الطلاء عن جـدرانها والتي كلما دخلتها عدلت عن استخدامها وعـدت أدراجـي ملاحقة برائحتها الكريهة. وأعطى للشاب الأمريكي المسئول عن الاستعارة الكتب التي أريدها وبطاقتي فينجز الأمر فـي دقيقتين عبر الشاشة الإلكترونية الصغيرة التي أمامه، ويعيـد لي الكتب، وسرعة الرجل تنكأ الجرح وتقلب مواجع الانتظار الطويل لكتاب، والبحث المضني بين أرفف مكتبـة جامعيـة لم يمسح الغبار منذ شهور عن كتبهـا. وارتبـاك الفهـارس وسوئها. دفعت باب المكتبة الزجاجي وخرجت متجهة إلـى غرفتي في برنس هاوس وليس في رأسي سوى شبه عبـارة تتكرر: « أي زمن جائر... » تجاوزت البركـة والكنيسـة الصغيرة ومبنى الإدارة حين توقفت فجأة وقلت: « أنصـفنا

الزمان أم جار علينا، ليست المسألة، المهم أن حملنـا فـي الزمان ثقيل! ».

وضعت الكتب في حجرتي ثم عدت من الطريق نفسـها مرورا بمبنى الإدارة والكنيسة والبركة والمكتبة، وفي نيتـي تناول وجبة غداء سريعة بمركز الحرم حتى أكون في قسـم اللغة الإنجليزية قبل الثانية اسـتعدادا للـذهاب إلـى درس النظرية النقدية. كان الرجل الأمريكي العجـوز ذو الجسـد النحيل قد اقترح في لقائه الأول بنا – نحن الطلاب الخمسـة المسجلين في « كورسه » - أن ننقل لقاءنا الأسبوعي إلـى بيته توفيرا لقدر أكبر من الهدوء والألفة. وهكذا صرنا نلتقي أسبوعيا في القسم ثم ننتقل معا في سيارات ثـلاث: سـيارة الأستاذ وسيارتين من سيارات الطلاب عبر طريـق جبليـة متعرجة تخرج بنا من البلدة وتفضي في النهاية إلـى بيـت الأستاذ فندخله ونجلس حيث أعد كل شيء لراحتنا: مقاعـد ذات طراز قديم وثير، مدفأة في الحائط تحترق الأخشاب فيها مثيرة دفئا استثنائيا في الغرفة الصغيرة، وغلايـة كهربائيـة كبيرة للقهوة، حولها أكواب من الكرتون وطبق من أكيـاس ورقية صغيرة من السكر. يجلس « البورفيسور » وحده على

أريكة وأمامه مائدة مستطيلة تحمل أوراقه وكتبـه ويـروح يتحدث بصوت هـادئ خافـت، يـربط ويقـارن ويطـرح التساؤلات. والحق أن الرجل كان متمكنا في تخصصه، ولكن الحق أيضا أن مشهد الثلوج في الخـارج، ودفء الحجـرة، وسخونة القهوة بعد وجبة الغداء، وصمت المكـان المطبـق إلا من صوت احتراق الخشب في النار، وقرقـرة الغلايـة كانت كلها تؤكد أن هذا وقت للقيلولة. وعبثا أحاول أن أتابع ما يقوله الرجل إلى نهايته فلا أفلح، وصوته لا يحـول دون رغبتي الملحة في النوم بل يؤكدها. وحين أنجح في مغالبـة نعاسي أظل غير قادرة على التركيز فيما يقوله الأستاذ، ألحق به في عباراته فتحملني العبارة وحدها إلى طريق مغاير ينأى بي عن عباراته اللاحقـة. وهـو يتحـدث عـن مـا نقلـه «كولريدج» عن المثاليين الألمان وأنا أستعيد مقـاطع مـن «قصيدة الملاح القديم». أنصت باهتمام إلى فاتحة ما يقـول حول ما في نظرية «شيلي» النقدية من ثغرات ثـم يـروح عقلي يطرح القضايا النقدية التي تشغلني وأجتهد في الوصول إلى تعريف خاص بي لطبيعة الشعر ووظيفته. وكدت أضحك بصوت عال حين نظرت يوما إلى زميلتي الجالسـة أمـامي

فوجدتها شبه نائمة، وزميلنا الجالس على الكرسي المجـاور لها يغالب التثاؤب. وتذكرت حصة النوم في الروضة حـين كانت تطلب المدرسة منا أن نريح رؤوسنا علـى سـواعدنا المتكئة على المكاتب. سوف أسميها إذن حصة النوم المقررة على طلاب الدكتوراه! والحق أقول إنه حدث مـرة أن لـم تراودني الرغبة في النوم إطلاقا في هذا الدرس الممتد مـن الثانية إلى الخامسة مساء حين جاء دوري بتقـديم مداخلـة مطولة حول النظرية النقدية للكتاب المثاليين الألمان!

ولكن محاضرة جوليوس لستر (*) كانت شـيئا مغـايرا بالرغم من كونها في الصباح المبكر أذهب إليها ولم أنفصـل بعد تماما عن غشاء النوم الشفيف. كان جوليوس رجلا نحيلا صغير الجسم تجاوز الثلاثين، له شعر أسود خشن وقصـير ووجه أسمر وفي إحدى أذنيه حلقة صغيرة لا يخلعها أبـدا. وما إن يدخل إلى القاعة ويخلع معطفه ويبدأ في محاضـرته

(*) كان جوليوس لستر عضوا بارزا في « سـنيك » (إحـدى المنظمات التي شاركت بشكل أساسي في الحركة السياسية السوداء في الستينيات)، وهو كاتب سياسي ، وباحث أكاديمي ، وجـامع للتـراث الشعبي الأسود ، ومغن وملحن، وله عدة كتب وأسطوانات .

حتى يؤخذ الطلاب بصوته الجهوري وإيقاع جملته ويحملهم على جناحيه كطائر هائل يعلو بهم، ويحلـق ويسـلك فـي انسياب ويلف على غير توقع ويهوي كما لو كان سيسقط ثم ثانية يرتفع. وعيون الجالسين تكشف عن متعة المغامرة فـي حضرة الطائر الواقف في ثوب شاب نحيل يعلق حكاية شعبه المسبي حلقة في الأذن. والطائر حين يبدأ حديثـه لا يطيـق حذاءه فينحني يخلعه ويضعه جانبا، هكذا في كل مـرة، ثـم يستمر.

قدرت الرجل وأعجبت بقدراته وأردت الاقتـراب منـه أكثر ولكن الطائر - الرجل - لم يكن يفرد جناحيه هكذا في الطريق، بل يسير في انكماش الغريب، نفورا شاردا وحيدا. وفي حجرته بقسم الدراسات الأفـرو – أمريكيـة يسـتقبل الطلاب بموعد سابق يقدم لهم العون فيه، ويأتي أحيانا بابنـه الصغير الذي يقوم هو برعايته يتركه جالسا علـى سـجادة الحجرة أمامه كراسة للرسم وكومة من الأقلام الملونـة فـي حين ينحني هو على كتبه وأوراقه على المكتب.

أوردت نشرة أخبار السابعة مساء فـي التلفزيـون أن ظاهرة التعري الجماعي آخذة في الانتشـار بـين طـلاب

الجامعات، وأن طلبة جامعة "نورث كارولينا" حققـوا الـرقم القياسي حين خرج أكثر من ثلاثمائة طالب وطالبة في يـوم واحد يركضون معا وهم عراة تماما. ولما كانـت نشـرات الأخبار تُعد لكي تسمع ويسـتقبلها النـاس ويتـأثروا بهـا، فما مضى يوم إلا والإعلانات تغطي الجامعـة بـأن طلبـة «ساوث ويست»، أكبر تجمع سكاني طلابي داخل الجامعـة والذي منه برينس هاوس، قد قرروا إقامة حفل « ستريكنغ » أي تعرٍ جامعي على أن ينطلق المشـاركون فـي السـاعة الحادية عشرة ليلا من مركز الحرم الجامعي، يدخلونـه ثـم يعودون. وأثار الخبر كل من فـي الجامعـة، مـن ينـوون المشاركة ومن ينوون المراقبة. أما نحن مجموعة الأصحاب الغرباء على المشهد الأمريكي، فقد ضحكنا كعواجيز الفـرح وقلنا: «لماذا لا نقيم نحن أيضا حفلنـا الصـغير الخـاص، نشرب ونأكل ونرقص في قاعة الدراسة المطلة على أبـراج « ساوث ويست» ولحظة والواقعة نطل من النوافذ فنشـارك في الحدث المثير بالمشاهدة!».

قلت لصديقي الإيرانيين لما رأيتهما مدججين كلا بآلـة تصوير:

- أرى أنكما ستلتقطان صورا منافية للآداب!

وضحت، فرد أحدهما ضاحكا:

- بل صورا تشهد على الزمان والمكان!

- الحق أقول لكما أن ما يشغلني أكثر من تعري هـؤلاء الشباب بلا سبب مفهوم هو ما سيتعرضون له من برد قارس. وسيصبحون جميعا في الغـد وقـد أصـابهم التهاب رئوي!

لم نتحدث في الأمر بعد ذلك بل رحنـا نشـارك فـي احتفالنا بالحديث والنقاش والثرثرة في موضوعات أخـرى، متناسين الحدث - المحور لليلة حتى نسيناه فعلا.

«هاهم بدءوا يظهرون!» لا أدري من ذا الذي اتخذ من النافذة برج مراقبة وإنذار، ولكننا تحلقنا خلف النوافذ ننظـر إلى موكب كبير من الطلاب العراة تماما إلا من الجـوارب والأحذية يهرولون من أمام الأبواب الخلفية لبرينس هـاوس. تساءلت إن كانت هرولتهم لشدة شعورهم بالبرد أم حرجا من عريهم غير المألوف. لم أر في حياتي مشهدا كهذا أو مقاربا حتى له، قلت:

- كان يجب أن ننزل لنشاهدهم عن قرب.

فقال صديقنا الألماني:

- ولكن الجو شديد البرودة.

وأجابتني آنا ضاحكة:

- لم يفتك شيء إذا كان لديك الاستعداد الآن للنزول وراءهم ركضا!

كنا لا نزال متحلقين حول النوافذ نعلق على الموضوع حين دخلت علينا ماري وشيلا اللتان تسكنان الدور نفسه بصخب عاصف. قالت ماري بصوتها الأجش العالي:

- أما مشهد! لقد لبسنا معاطفنا ونزلنا، وانتظرنا خروجهم، ورأيناهم يمرون من أمامنا.

وضحكت بمزيج من العصبية والفرح المنفعل.

- لقد التقطت لهم صورا! كانت أبدانهم جميعا مقشعرة من شدة البرد.. مساكين! أما منظر الأولاد... يا إلهي!

وراحت تقهقه. أما شيلا فكانت تتحدث إلى مجموعة أخرى عن تقديرها لعدد المتعرين. كان من الواضح أنهم مئات. قالت شيلا بثقة:

- ليس أقل من أربعمائة!

في اليوم التالي جلست في قسم اللغة الإنجليزية مع أستاذ النقد النظري وإحدى الزميلات بانتظار باقي المجموعة للذهاب إلى بيت الأستاذ للمحاضرة. كانت جريدة الجامعة قد نشرت الخبر، وقالت إن عدد الطلاب قارب الأربعمائة، وصدرت في الصفحة الأولى صورة لعدة فتيات عاريات أثناء ركضهن في الموكب. قال «البروفيسور» وهو يبتسم بهدوء «صرعة جديدة» وقلت لنفسي: «وما الذي يحرك هذه الصرعات الجديدة؟!».

كان الجواب واضحا في عدد اليوم التالي من «الديلي كولويجيان» حين سئل أحد المسئولين في شرطة أمهرست والتي تدخل الجامعة ضمن اختصاصها، فقال:

- لماذا نقلق؟ إن الطلاب يستمتعون بوقتهم... وهذا أمر صحي، المؤكد أنه أفضل من ذلك الهوس السياسي الذي استولى عليهم في الستينيات.

كانت الشرطة تريد للطلاب الاستمتاع بوقتهم هكذا جماعيا، لأن هذا يفيد، أما خروج فرد عن المألوف فلم يكن مطلوبا في شيء. ولذلك فقد قبضت الشرطة بعدها بيومين

على طالب عن له أن يركض فـي وضـح النهـار عاريـا بالجامعة، قبضت عليه وأنذرته بالعقاب ثم أفرجت عنه!

٧

ما الذي يحدث حين تعلو في الفضاء فجأة تغريدة طائر بشير تكذب لسعة البرد وعري الأشجار وتقـول إن الربيـع أتى؟ وأفكر، وأنا بعد لم أغادر فراشي، بأني ألتقي الصـباح عبر الواجهة الزجاجية العريضة، فـي المواسـم، فواصـل الزمن، وأتساءل إن كانت أقواسا تطلقنا أم أبواب سـجن أم أننا الذين نختار؟ ظل الأبواب مـوت، والخـوض صـعب، وعيناي لا تكذبان (هذه المرأة الصـغيرة خائفـة وتقـدم) والطفل الثاقب النظرات عمر حين عدت للقاهرة قال لأمـه: «لماذا هي ساكتة هكذا، وعيناها مختلفتان؟» ولو أنني حجر! وزقزقة العصفور تقلّب جفاف الجسد وحاجة الروح للغياب. وأحمل من درج مكتبي الصور التي التقطتها أثناء زيـارتي للقاهرة أتملاها ثم أعد قهوتي الصباحية، وأغتسل، وأسـتعد للخروج.

قالت لي صديقتي آنا وهي جالسة معي في مقهى الجامعة معلقة على رغبتي في التقدم لامتحان التخصص الشامل بعد انتهائي من « الكورسات » في الصيف:

- لماذا أنت دائما في عجلة من أمرك، كأنك تريدين اللحاق بقطار؟
- هل تذهبين معي الأسبوع القادم إلى حفل « كاونت بيسي » سيعزف هنا في الجامعة.
- أذهب ولكنك لا تجيبيني، كنت أقول إنك دائما تركضين كأنك تريدين اللحاق بقطار.
- أو كأنني خائفة من أن يدهمني قطار يا آنا!

قررت التقدم بمشروعات التخصص الثلاثة بأسرع ما يمكنني حتى إذا وافق عليها مجلس الدراسات العليا بقسم اللغة الإنجليزية تقدمت للامتحان في الوقت الذي يحدده فأكون بذلك قد اجتزت نصف المسافة. ومرة أخرى رحت أركض في حركة محمومة من أجل إنجاز ما أريد. كان علي أن استكمل بعض القراءات الأساسية قبل أن أستطيع كتابة اقتراحات التخصص بما يرضيني، فيما أواصل حضور الدروس المقررة وإعداد ما يتطلبه الأساتذة؛ مداخلات

وأبحاث. هكذا قضيت النصف الثاني من شهر مارس وشهر أبريل كله وأنا موزعة بين قاعات الدرس ومكتبة الجامعـة. عمل يومي متصل هو إقامة تتحدد بـين ملايـين الأحـرف المتشابكة في كلمات متراصة في أسطر تتعاقب علـى ورق بعقد الصلة بين المحدود والبحر. يدعوني البحر فأروح إليـه موزعة بين وجل المرأة الصغيرة وزهـو المقتـدر. وكلمـا توغلت اتسع البحر أمامي عميقا ومتراميا يحيرني مـا بـين حرفة الغواص والربان. ثم يداهمني شعور مبهم بأن ضـوء النيون في المكتبة، والغبار الدقيق المختلط بصفحات الكتـب القديمة، وشبه العتمة بين أرفف الكتب في الأدوار العلويـة، خانقة، وإن هذه المكتبة المرتفعة ستة وعشرين طابقا فـوق الأرض تحمل شيئا من عتمة قبو أرضي. ربما كانت مقبـرة بحرية وإلا فلماذا باغتني المكان في ضوء الشمس السـاطع حين خرجت إليه ذلك اليوم لتناول الغداء؟ ولمـاذا ارتبكـت وملأت الدموع عيني وأنا أخرج من مكتبة جامعة أمهرسـت عند الغروب حين سمعت صوتا ناعما ينبعـث مـن أوتـار غيتار؟ تتبعت الصوت فوجدت شابا يجلس على حجر يواجه التلال الدخانية في الأفـق. كانـت السـماء صـحوا ودفء

الموسيقى يجاوب دفئا استثنائيا فـي ذلـك اليـوم الربيعـي المتوهج بالشمس العارية، خلعت حذائي وسرت على العشب أستمد من اليابسة تحت قدمي العاريتين ثباتا وطمأنينة.

كانت زيارتي لبوسطون دائما خاطفة ولغرض محـدد، ومع ذلك فقد ألفت المدينة وراقت لي أبنيتهـا القديمـة ذات السقوف القرميدية، ومساحات الخضرة فيها، ولوحات التأثير بين الأوروبيين في متحف فنونها الجميلة، وتمثـال هنـدي معجز في إحدى قاعاته. ثم إن بالمدينة نهرا، وأعتـرف أن نهرا في المدينة يكسبها في القلب مكانـا. ورغـم زيـاراتي المتعددة لم أكن قد زرت أيـا مـن جامعاتهـا ولا آثارهـا التاريخية المرتبطة بالثورة الأمريكية. وحين سألني زميلـي الألماني الفارع الطول إذا كنت أحب أن أرافقه هو وصديقته اللا لقضاء يومين في بوسطون قبلت. كـان الطقـس رغـم برودته ربيعيا، وقد ذابت الثلوج كاشفة عن مساحات العشب، والأشجار تحمل على أغصانها تلك الكريات الدقيقة الصـلبة التي قد تفاجئ المرء بالأخضر في أي وقت. وكانت هذه أول زيارة سياحية لي للمدينة، وتولت اللا مهمة إرشادنا، قررت عنا أن توزع اليومين اللذين سنقضيهما فـي المدينـة فـي

مشاهدة مواقعها التاريخية وزيارة جامعة هارفرد والتسكع في الساحة المواجهة للحـرم الجـامعي (تسـكع مخطـط لـه ومحسوب حسب برنامج اللا!) وتناول فطيرة تفـاح مـع القهوة بالحليب في «البيوتر بـوت» لأنـه مقهـى شـهير وتاريخي (!) ثم تناول وجبة عشاء في اليوم التالي للوصول في مطعم صيني يقدم طعاما شهيا – حسب معلومـات الـلا وبرنامجها غير المدون – يطل علـى نهـر الشـارلز فـي كامبريدج.

تركنا أمهرست في الثامنة من صباح السـبت فوصـلنا بوسطون بعد ذلك بساعتين، بدأنا بترتيب أمر مبيتنـا فلمـا انتهينا من ذلك اقترحت اللا أن نبدأ بأثر الحرية.

- وما هو أثر الحرية يا اللا؟
- إنه طريق يمر بأهم المواقع الأثرية المرتبطة بأحـداث الثورة الأمريكية.

لم أدر في الماضي وما زلت لا أدري تماما لماذا لم تُثر الثورة الأمريكية حين درسنا عنها في مقرر التاريخ بالمرحلة الثانوية اهتمامي أو خيالي، ذلك رغم حبي للتاريخ وتـوهج خيالي بأحداثه الجسام. كان في حـديث الثـورة الفرنسـية

عشرات التفاصيل التي تملكني كما الطفلة المنصتة لحكايات ألف ليلة وليلة، سقوط السجن العاتي، حشود الجائعين، بلاهة الملك، براعة الخطباء، الملكة المسوقة للمقصـلة، وصـعود الكورسيكي ذي الجبة العريضة، شـعار الكلمـات الـثلاث والقبعة المثلثة والشارات على الصدور والتقويم الجديد، ونار الفعل التي تسري كالريح الغربية يكتبها الشاعر * في الناحية الأخرى من المحيط. ولماذا لم تقل لي هذه الثورة الأمريكية شيئا ولم أجد فيها - وأنا مراهقة صغيرة أتعلم في مدرسـة ثانوية للبنات - غير عبء حفظ التواريخ وعـدد صـناديق الشاي التي ألقي بها في المحيط وقيمتها بالجنيهات.

- هيا بنا إلى أثر الحرية يا اللا!

سرنا متتبعين خطا محددا بالطلاء الأبيض يمتد من قلب مدينة بوسطون حتى الشاطئ حيث اندلعت أحـداث «حفلـة الشاي» عام ١٧٧٣ مرورا بموقـع «مذبحـة بوسـطون» والكنيسة الجنوبية القديمة مقر الاجتماعات التي جرت بـين قادة الثورة وبعض المشاركين فيها. كنت أسير على الخـط الأبيض وأتمنى لو أنني أجلس في سلام بأحد المقاهي أتناول

---

* الإشارة هنا للشاعر الإنجليزي شيلي وقصيدته للريح الغربية .

كوبا من القهوة الساخنة. هل كان البرد القارس أم صوت اللا النحاسي المنفر الذي جعلني أنكمش بعيدا؟

المؤكد أنني تحولت عن المشهد ككل بعد أن قادنا الخط الأبيض إلى قطعة أرض خالية وأعلنت اللا:

- هنا قتل خمسة أشخاص على أثر مناوشات بين الأهالي والعساكر الإنجليز في مـارس عـام ١٧٧٠، وهـذه الواقعة هي المعروفة بمذبحة بوسطون.

ولم يكن قد مضى أكثر من بضعة أشهر على مذبحـة الملعب الرياضي في شيلي عقب انقلاب بينوتشيت العسكري على حكومة آييندي المنتخبة. خمسة آلاف شخص حشـروا بالملعب الرياضي انتظارا للمذبحة التي راحت تمتد بعد ذلك بطول البلاد. ولم يكن دور الولايات المتحدة في هذه المذابح ليخفى على أحد.

تُرى أفي الزمان القريب أم الأبعد يزور الوافدون موقع مذبحة الآلاف بسنتياغو حيث قطعوا يدي العـازف المغنـي فيكتور هارا قبل أن يقتلوه؟

واللا تحرك فكيها بحماس لا يكل، وصديقها الألمـاني يناسبها بلادة، وقدماي تتبعانهما على الخط الأبيض الـذي لا

ينتهي، أفكر في مذابحنا التي لا تنتهي. ترى كم مذبحة ننتظر؟ لقد أسلمتنا الأيام الستة لمذابح الألف قتيل في يونيه ١٩٧٠ التي راحت تخفت وتتوارى أمام مذابح أيلول. وقبل تمام العام، ولابسات الحداد لم يخلعنه بعد ولا اعتدن غياب الغياب، داهمتهم أحداث جرش والهزيمة من جديد. ترى كم مذبحة ننتظر، وكم حربا يتعين علينا خوضها، وكم منا من يتعين عليه أن يصعد للموت هكذا كنبي كما فعل عبد الخالق والشفيع؟

- لا أريد الاستمرار في السير في هذا الأثر، إنني ذاهبة!

عدت من بوسطون بنسخة ورقية مصغرة من لوحة «الغرنيكا» لبيكاسو علقتها في مواجهة سرير ببرينس هاوس. ولكني حين ذهبت بعد ذلك بفترة قصيرة إلى متحف الفن الحديث بنيويورك حيث تُعرض اللوحة الأصلية عرفت أن النسخة المصغرة تتنافى مع الحضور العبقري للأصل بل تكاد تنكر البطاقة البريدية المعمار المعجز للكتدارئية التي تحمل صورتها. كانت اللوحة تغطي الجدار المواجه كاملا وعلى الجدران المحيطة رسوم بيكاسو التي بدأ يخططها فور سماعه خبر قصف القرية. وفي كل الرسوم تتكرر تلك

المرأة العاصفة. مركز الصورة هذه المرأة أم هكـذا العمـل العبقري دائما تتعدد المراكز فيه؟ ويد الفـارس المقطوعـة والقابضة على زهرة بعزم نبي، أليست هي الأخرى مركـزا من موقعها بأسفل اللوحة؟ وتلك المرأة التي تنحني على ابنها القتيل بأقصى يسار اللوحـة تجـاوب فـي القلـب وجعـا. هذه « الغرنيكا » تحمل همي وتجربتي، حملتها فـي قلبـي ونزعت النسخة المصغرة عن جدار الغرفة.

في أمهرست يبقى الربيع حيا خافت الحضـور حتـى نهاية أبريل. ثم يأتي مايو فتدخل الأرض وساكنو البلدة إلـى مساحات من الدفء والفرح ترتبط بالأخضر الجديـد علـى الشجر ونعومة رائحة الليلاك التـي تتسـرب عبـر النوافـذ المشرعة، لا يكاد المرء في النهار يشعر بها، وفي المسـاء تصبح هي السيدة في المكان.

وحيث يطول الشتاء وتتراكم على الأرض الثلوج ويجف الشجر كأن لا أمل في عودة حياة إليه يكون لليوم الربيعـي المشمس بهجة ولادة طفل في بيت شاخ كل من فيه.

هكذا حين هل الشهر الخامس كـان الحـرم الجـامعي يتوهج بضوء الشمس وبصخب الطلاب الذين راحوا يحتفون

بمقدم الدفء واقتراب العام الدراسي من نهايته. كان العديد منهم قد بدءوا يتخففون من ملابسهم البعض يلبس الشورت، والبعض يسير عاري القدمين مستمتعا بنداوة العشب، بعض الأساتذة خرجوا بمجموعاتهم الطلابية من قاعات الدرس وجلسوا على العشب يكملون درسهم. وأصوات لآلات موسيقية تضبط وتعد يسمعها العابر من أمام الكنيسة العتيقة والتي تستخدم كمقر لفرقة موسيقية.

كان المكان يتألق بحيوية الاستعداد لعرس. ووجدتني أسير في الحرم الجامعي أجاوب البهجة في المكان. حملت إلى حجرتي فرعين من الليلاك ووضعتهما في إناء زجاجي فارغ من أواني القهوة، ملأته إلى النصف بالماء ووضعته على حافة النافذة. تركت باب الحجرة مفتوحا وجلست إلى المكتب.

كنت قد انتهيت تقريبا من الأبحاث المطلوبة مني للفصل الدراسي وبدأت الاستعداد للامتحان الأولي الشامل للدكتوراه. بعد أن وافقت لجنة الدراسات العليا على المشروعات التي تقدمت بها وحددت يوم ١٧ يونيه موعدا للامتحان.

وبطول حياتي الدراسية لم تشكل الامتحانـات لـي لا موضوعا للخوف ولا مركز جذب يحدد مسار حياتي اليومية. ولكني في هذه المرة كنت خائفة أعايش خشيتي من الرسوب على مدار اليوم. كنت قد قررت أنني حين أنجـح سأسـجل موضوع الرسالة وأحمل معي بعض ما أحتاج من مراجـع وأشرع في كتابة جزء من الرسالة في القاهرة ولا أعود إلى أمهرست إلا في يناير من العام التالي، واصلة بذلك عطلـة الصيف بعطلة أعياد الميلاد، مرورا بفصل الخريف الدراسي الذي لن يكون مطلوبا مني فيه حضـور أيـة دروس. وإذا رسبت؟ يتركني السؤال بائسة في المفترق كطفلـة يـداهمها الخوف أمام سيل السيارات الذي لا ينقطع من الطريق الذي يتعين عليها عبوره للوصول إلى البيت فتقف بلا حراك تملأ عينيها الدموع!

غادرت زميلتي في الغرفة الجامعـة لقضـاء الأجـازة الصيفية مع أهلها. وكان شعوري بـانفرادي فـي الحجـرة مركبا، فزميلتي صارت توترني ببحثها الدءوب عن عـريس وحبها العظيم للنوم، وغطائها الموصول بسلك كهربائي يدفئ الجسم ومكالماتها التلفونية لأمها في ولايـة ثانيـة لتسـألها:

«عندي صداع... ما العمل؟» ورغم ذلك افتقدتها، ليس لأنني فقدت مركز المتفرج الخبيث الذي يتسلى بالمشاهدة ولكن لأنني في الحق كنت أعرف مدى طيبتها وأحبها وآنس بوجودها.

كذلك غادر معظم ساكني برينس هاوس الذي كاد يخلو إلا من عدد قليل من الطلاب الوافدين أمثالي الذين يستعدون لامتحان أو آخر. وبدا الحرم الجامعي بعد حفل التخرج في أول يونيه خاويا تماما بل وموحشا.

ورحت أواصل الاستعداد للامتحان بالاطلاع على المراجع والدراسات التي تتناول مجالات التخصص الثلاثة التي سوف أسأل فيها. واستعضت عن القراءة في المكتبة بالقراءة في حجرتي إلا إذا اقتضت الحاجة غير ذلك. أقضي النهار وأنا جالسة أقرأ، وحين أتعب أذهب سيرا إلى أحد مقاهي الجامعة لتناول قطعة من الحلوى أو أستعير دراجة زميلة لي وأركبها إلى مركز البلدة.

كانت الطريق إلى الشارع الرئيسي بأمهرست جميلة، فالأخضر غالب، تزين حدائق البيوت الصغيرة المكونة من طابق أو اثنين أحواض من الزنبق الأحمر والأصفر. وفي

أحد المنعطفات شجرة يفاجئني لون أوراقها في كل مرة أراها كأني لم أرها من قبل. فمن أين لأوراق شجرة بهذا الأحمر الخمري؟ وأركب الدراجة حتى أصل إلى محل لبيع المثلجات وأشتري ثم أعود لمواصلة العمل.

ذهبت للامتحان صباح يوم ٧٤/٦/١٧. أحضر لي أستاذي رئيس لجنة الإشراف كوبا من القهوة وقال وهو يبتسم: «ليس في الأمر ما يوجب التوتر!» فانتبهت لكوني متوترة. كان الامتحان شفهيا واللجنة مكونة من خمسة أساتذة. بدءوا يسألون وأخذت أجيب. بعد ثلاث ساعات انتهى الامتحان وطلب مني الانتظار بالخارج.

جلست في حجرة مجاورة وقد داهمني شعور بالتعب. هل كان قلقا؟ بعد دقائق يخرجون من الحجرة ليعلنوا لي النتيجة، وقولهم يحدد مسألة سفري إلى القاهرة. هل أبدو شاحبة كما في تلك الصورة التي التقطت لي وأنا أقف بالرداء الجامعي الأسود بعد انتهاء مناقشة الماجستير ورئيسة لجنة الامتحان تقرأ النتيجة؟ في الصورة أبدو نحيفة وصغيرة كمراهقة هادئة المظهر وعيناها الواسعتان تنطقان بالقلق والذكاء.

وها هو الأستاذ العجوز بروغن أول من يخرج من القاعة، يبتسم ويقول إنه قرأ رسالة الماجستير وإنه يعتقد أنها ممتازة. وأنا أنتظر أن يقول شيئا عن امتحان اليوم فهل ليس لديه ما يقوله إلا إطراء لعمل قديم؟ كنت مخطئة فقد كان على رئيس اللجنة أن يبلغني بالنتيجة، وقد خرج وهو يضحك قائلا:

- لا بد أنك مدرسة جيدة يا رضوى لأنك مقنعة جدا في النقاش. مبروك! لقد نجحت. وقد صوت أربعة من أعضاء اللجنة بإعطائك امتيازا، وصوت واحد بأن تنجحي فقط، مبروك!

كانت الجامعة التي امتلأت قاعاتها وملاعبها بآلاف الطلاب، قبل ذلك بشهر واحد قد أقفرت إلا من العشرات وخيم عليها سكون ووحشة ورحت أعمل بانتظام في جمع المادة العلمية التي سوف أحتاجها أثناء وجودي في القاهرة، كنت أذهب كل صباح إلى المكتبة، أبحث عما أريد من دوريات ومراجع ثم أحمله إلى جهاز التصوير لأصور ما يفيدني من دراسات بها، وحين أعود إلى برينس هاوس، بعد

الظهر في الغالب، أتناول وجبتي المسائية مع القليلين من أصحابي الذي لم يسافروا.

وفي يوم خانق الحرارة من مطلع يوليه أخذت تتوافد على الجامعة عشرات السيارات الخاصة وسيارات النقل الصغيرة، وضج الحرم الجامعي فجأة بالصخب والحركة. «ما الخبر؟» سألنا فعرفنا أن إدارة الجامعة قد أجرت أحد الأبراج السكنية في « ساوث ويست » وبعض القاعات والملاعب للغورو ماهاراجي ومريديه. ولما لم يكن أحد منا قد سمع الاسم من قبل فقد رحنا نسأل عن الرجل وحكايته.

قالت زميلة أمريكية لنا إنه قد يكون أحد الحكماء الهنود كالغورو الذي درس لها « كورس » التأمل في الفصل الدراسي السابق.

- كان الغورو يعلمنا كيف نقضي عدة دقائق دون أن نفكر في أي شيء على الإطلاق، يعلمنا كيف نتحكم في قدرتنا على إيقاف تيار أفكارنا تماما.

هل كانت المعرفة تنقصني أم أنني كنت صائبة في حكمي على زميلتي الأمريكية بأنها صغيرة بلهاء وبأن

لأستاذها براعة المحتالين؟ لم أفصح عن ذلك ولكني فقط حركت كتفي وقلت:

- لم آت إلى الجامعة، لكي أتعلم كيف أمنع نفسي من التفكير!

ثم تبدل وجه الجامعة بين يوم وليلة، إذ عجت بآلاف الشباب ذوي الهيئة الهيبية، الشعور المرسلة والملابس الكالحة الرثة والأقدام الحافية. وصارت لمقاهي الجامعة رائحة هؤلاء الشباب الكثيرين الذين لم تعرف أجسادهم الماء لأيام طويلة. وحول البحيرة، وعلى العشب هنا وهناك، استلقت مجموعات تفوح منها رائحة العرق والماريوانا. ولم يقتصر مشهد التقبيل على الزوايا، ولا هو اقتصر على فتى وفتاة هنا أو هناك. ورغم أن الجامعة إدارة وطلابا كانت تعترف بالجنسية المثلية، وتسمح للطلاب ذوي العلاقات المثلية بأن يكون لهم جمعية تمثلهم وتدافع عنهم، وحفلات راقصة خاصة تقام بين حين وآخر في أحد مقاهي مركز الحرم، إلا أن مشهد شابين يقبلان بعضهما في وضح النهار بالجامعة وسط الرائحين والغادين لم يكن بالشيء الشائع.

ولكن الجامعة في ذلك الأسبوع الأول من شهر يوليـه عام ١٩٧٤ كنت قد تحولت إلى مسـتعمرة هيبيـة كبيـرة تمارس فيها مظاهر حياة ما يسمى بالثقافة المضادة. ولم يكن كل الذين أتوا إلى الجامعة للالتقاء بصاحب الرسالة الهنـدي آتين من أماكن قريبة، فالبعض منهم قطع القارة من الشاطئ الغربي إلى حيث الجامعة بشمال شرق البلاد في رحلة برية استغرقت عدة أيام، والبعض أتى بالطائرة خصيصا للمناسبة، وكانت هناك طائرة خاصة حملت بعض المريدين من أمريكا الوسطى والجنوبية، هذا ما سمعناه!

ثم شاهدنا عمالا يقيمون عند الملاعب المترامية خلـف أبراج « ساوث ويست » قبة ضخمة من الحريـر أحيطـت بعشرات الكشافات. « هنا سوف يجلس الغورو، ومن علـى تلك المنصة العالية المظللة بالقبة الدمقسية سوف يطل علـى مريديه المحتشدين أسفل المنصة ».

وفي المساء حملنا أنفسنا، نحن الأغراب على المشـهد الأمريكي والشهود عليه، فاتجهنا إلى حيث الملاعب. وقبـل أن نقترب من المكان وصلت إلى أسماعنا موسيقى صـاخبة فتساءلنا إن كان هناك حفل راقص بالقرب من المكان وإذا ما

كان الحفل بريئا أم يقصد به إفساد الاستماع إلى دعوة النبي الهندي.

هبطنا من أعلى التلة حيث الأبراج السكنية وبيتنا إلـى مساحة من العشب الممتد. رأينا حشودا من البشر الجالسـين على العشب، سبعة آلاف، عشرة آلاف، أكثر... وموسـيقى راقصة تنبعث عالية من مكبرات صوت ضخمة موزعة في المكان راح مريدو الغورو الشرقي يستجيبون لهـا بالتمايـل وهم جلوس أو بالرقص على إيقاعها.

توغلنا أكثر. بدا المكان كيوم الحشر غاصا بآلاف البشر بينهم عديد من المعاقين. بحثنا عن مكان نجلس فيه فوجـدناه لصق شاب يضع جواره عكازتين كبيرتين. سمعت شخصـا يناديني فالتفت. كانت سيدة أفرو – أمريكية مـن معـارفي. قالت وهي تقترب مني وترفع صوتها لكي يصل إلى وسـط الضجيج البابلي المحيط:

- المركب يغرق أم أن لك رأيا آخر!

وأطلقت ضحكة ضاع صـخبها فـي الصـخب العـام وتركتني. ورحت أسـتعيد أبياتـا مـن قصـيدة «الأرض الخراب» لإليوت:

أي فروع سوف تنمو من هذا الركام الحجري؟
يا ابن الإنسان ليس في مقدورك أن تقـول أو تخمـن
فأنت لا تعرف سوى كومة من صور محطمة.

وأي فروع يا ترى سوف تنمـو مـن هـذا المشـهد الأمريكي التعس؟ يدوي صراع مفاجئ، ويقفز الناس واقفين، ويفقد البعض وعيهم، ظهر الغورو.

على المنصة تحت الأضواء الكاشفة، وقف فتى هنـدي متوسط القامة، مستدير الوجه، له شعر أسود لامـع يغطـي نصف أذنيه. وبدا واضحا أن النبي الهندي صبي فـي سـن المراهقة لم يتجاوز عامه السابع عشر.

ثم ساد الصمت وبدأ الغورو يتكلم باللهجـة الإنجليزيـة المميزة لأهل الهند عن الحب وعن النفس التي تحمـل كـل شيء في الوجود بداخلها والتي على المرء أن يبحث فيها عن أجوبة لكل الأسئلة. والبشر ينصتون، وأنفاسهم معلقة بوجـه الصبي المخلّص الذي يعيد بعض مقولات قديمة في التصوف الشرقي. وألكز صديقتي الجالسة بجواري أقول لها ساخرة:

- إن كل هذه الأسئلة حول ووترغيت يجب ألا توجه إلى نيكسون وإدارته بل إلى النفس يا عزيزتي، سلي نفسك تجدي الجواب دائما.

وتضحك صديقتي، والمشهد عاد مثيرا للملل وقد توقفنا عن الإنصات إلى صوت النبي الرتيب. وأفكر كم أن الشاعر إليوت كان عرافا في توصيف الداء ونموذجيا في الاختيـار. حضارة كسيحة، في القصيدة، والآن نصف قرن، تزحف إلى مخزن قديم للموروث الصوفي الشرقي وتستخرج عكـازتين لتسير. وذلك المسكين الجالس بجانبي وبجـواره عكازتـان طويلتان من خشب يستعين على السير بهما، هل جـاء هنـا آملا في الشفاء على يدي المخلص من ساقه المبتـورة فـي الحرب الفيتنامية على الأرجح، أم جاء يبغي عكازة للـنفس، صورة أو بعض صورة يعلقها على الجدران العارية لعمـره الشقي؟ يا بن الإنسان الواهم، يا بن الإنسان المسكين!

ونترك المشهد. ندير ظهورنا للآلاف الجالسـة علـى العشب ونصعد باتجاه برينس هاوس وكلمات الهندي تصـل أسماعنا عبر مكبرات الصوت.

- مشهد كئيب!

- إنهم بحاجة لمخلّص.
- ليس لمخلّص بل لخلاص.
- وذلك لا يخفى على الأجهزة!
- وهناك دائما دمية من نوع ما يمكن إلباسها وطلاؤهـا وتقديمها في ثوب مخلّص.

في صباح اليوم التالي عرضت عدة أفلام عن الغورو، وعقدت حلقات لدرس ما قال، وفي الساحة المواجهة لمـدخل مركز الحرم نصبت طاولات لبيع قمصان قطنية تحمل على الصدر صورته، وأشرطة تسجيل بها أحاديثه، ودبابيس عليها شعاراته.

وقال أحد أصدقائنا وهو يضحك:

- قيل لي إن من يريد تقبيل يد الغورو يدفع ٢٥ دولارا!
- أنا أيضا سمعت ذلك!

ضحكت ولكني لم أكن أمزح، كنت فعلا قد سمعت ذلك! غلبني الشعور في الأسابيع الأخيرة من وجودي في أمهرست بأنني أشبه بنبتة منع الماء عنها، وكنـت أجـف. صـرت أتحاشى النظر إلى وجهي في المرآة أصفف شعري، أعـدّل من هيئتي وعيناي مثبتتان على شعري أو ملبسـي، أخشـى

لقاء العينين بالعينين، وأسرع الخطو حتى لا أبصر ذلك الذي يتبعني في صمت عاتب، أنكره ولا أنكره.

ومع ذلك كانت مغادرتي أمهرست هذه المـرة مختلفـة بعض الشيء عن سابقتها، كنت أترك ورائي أمـاكن ألفتهـا وأصحابا أعطوني في الغربة بيتا أسكن إليه وفيـه. ذهبـوا معي إلى المطار لتوديعي، أربكني الفراق، قبلتهم ودخلت إلى قاعات المسافرين يثقلني أنني قد لا أرى صديقي الإيـرانيين بعد ذلك أبدا، لأنهما ينهيان دراستهما ويستعدان للعودة إلـى بلادهما. تطير بي الطائرة نصف ساعة من مطـار برادلـي بهارتفورد إلى نيويورك ثم أجلس في انتظار إقلاع الطـائرة الجامبو الكبيرة إلى باريس. أصل باريس التي لم أزرها أبدا في صباح اليوم التالي بعد تسع ساعات من طيران متصـل. وأضن على نفسي بالنوم صباحا في مدينة جديـدة فأنضـم لرحلة سياحية تطوف المدينة في ساعات بالأتوبيس. وأسمع كلمة مما تقوله المرشدة وأغفو، ألمح برج إيفيـل مـا بـين اليقظة والنوم، وحين يتوقف الأتوبيس لكي يرى السـائحون كنيسة نوتردام أذهب إلى مقهى قريب وأتناول كـوبين مـن القهوة ثم أدخل إلى مبنى الكنيسة أشاهد معمارها المعجز.

وأنزل في فندق متواضع بحي عمالي. أنام ساعتين ثـم أعود إلى الشارع لكي أرى، ولكني أسمع. هل هـو الحنـين الذي يتبعني صار له صوت كصوت المؤذن ساعة الغروب؟ ولكنني أسمع صوت المؤذن يعلو صافيا فـي ذلـك الحـي العمالي الفقير. أتبع الصوت وقبل أن أصله ينتهي الآذان ثـم يعقبه غناء لفريد الأطرش. أصل إلى حانة للعمال المغاربـة هي مصدر ما سمعت. أقف بباب الحانة، خطوة تقـدم بـي للجلوس مع من فيها وأخرى تحجم واعية بأن أحدا منهم لـن يفهم ما الذي أتى بتلك المرأة العربية مثلهم إلى حانة الرجال. أقف بالباب أستمع للأغنية إلى نهايتها ثم أدور على أعقـابي برفقة ظلي الذي أمسكت بيده هذه المرة ورحنا في المدينـة الجديدة نسير معا. قضيت يومين في باريس وفـي صـباح اليوم الثالث غادرتها إلى القاهرة.

٨

أغلق باب حجرتي في برينس هـاوس وأجلـس علـى السرير أمام حقيبتي السفر، الحقيبة التي حملتها من القـاهرة وتلك التي كنت أودعتها بعض أغراضي واحتفظت لي آنـا بها في أمهرست. حجرة الغريب موحشة. غدا أضـع علـى السرير ملاءة بيضاء وأحول السرير الآخـر إلـى أريكـة أغطيها بالمفرش المصنوع من قطن مدراس. لا زهور فـي يناير أضعها على حافة النافذة. أزيح الستارة الرمادية فأرى أبراج « ساوث ويست » أمامي. خصـتني مـديرة البيـت بحجرة لي وحدي وقد أصبحت من المخضرمين في البيت.

في الصبح أصحو على البلدة التي غادرتها تتـألق فـي عزها الصيفي وقد سكنت في الأبيض وأثقلت فروع أشجارها الثلوج. أخرج معطفي الأزرق وغطـاء رأسـي وقفـازي وحذائي المبطن بالفراء من الحقيبة التي أعادتها لي آنا. وآنا لم تعد تسكن برينس هاوس ولا أصـحابي البورتوريكيـون، وصاحباي الإيرانيان غادرا. ترى مـن يسـكن فـي هـذه

الحجرات المجاورة؟ ها هي زميلتي التي كانت تشاركني الحجرة تسكن في الحجرة الملاصقة، اسمها على الباب وملصق صغير ملون لعروسين بثوب الزفاف. هل تزوجت أم فقدت عقلها أم أصيبت بالأمرين معا؟ بعد تبادل القبلات والأخبار عرفت أنه لم يحدث لها أي من الأمرين. ألا يكتب الإنسان اسمه وعمله بباب بيته تعريفا بهويته؟ هكذا علقت زميلتي بباب حجرتها اسمها وتعريفا بأكثر الطموحات أصالة في نفسها: حلم الزواج!

على المكتب أضع فصلي الرسالة اللذين انتهيت من كتابتهما أثناء وجودي في القاهرة. ها هما أخيرا جاهزان للعرض على المشرف. كانت هذه الأوراق المكتوبة على الآلة الكاتب والتي لا تتعدى الخمسين هي موضوع قلق الرحلة فلم يكن معي ما أخشى عليه سواها. ولما راحت الطائرة تتعثر في الضباب الكثيف الذي يحيط بنيويورك بلا بادرة على إمكانية الهبوط إلى مطار كنيدي أخذت أطمئن نفسي بأنني أحمل نسختين مما كتبت، إحداهما بحقيبة السفر والأخرى في حقيبة يدي! هأنا والأوراق وصلنا في نهاية المطاف سالمين. أرتب الأوراق على المكتب ثم أعلّق

بطاقتين مصقولتين اشتريتهما من متحف الإنسان بلندن على لوحة الفلين التي فوق المكتب. البطاقة الأولى تحمل صـورة بالأبيض والأسود لتمثال صغير من البرونز لـرأس امـرأة إفريقية من صنع مثال مجهول من اليوروبا. هذا أجمل تمثال صغير وقعت عيناي عليه، وهذه البطاقة الصغيرة تختصـر الأصل، صحيح ولكنها لا تضيعه. والبطاقة الأخرى مصقولة أيضا ولكنها ملونة لثوب فلاحي فلسـطيني مطـرز. أعيـد ملابسي إلى الدولاب ثم أبدأ في الاتصال بأصحابي أعلمهـم بوصولي.

قالت صديقتي الأفرو – أمريكية العجوز التـي جـاءت إلى أمهرست في الخريف كأستاذة زائرة:

- تعالي فورا سأكون بانتظارك. إنني أتحـرق لسـماع أخبار القاهرة.

وضعت السماعة وتحصنت بالمعطف والطاقية والشـال والقفاز وغادرت برينس إلى وسط البلدة حيث فندق الـورد جيفري الذي تنزل فيه صديقتي. ولو أن الوقت صيف لذهبت سيرا على قدمي، ولكن للبـرد القـارس أحكامـه. ركبـت الأتوبيس إلى وسط البلدة ثم عبـرت الشـارع إلـى كليـة

أمهرست التي تجاوزتها إلى مبنى صغير هو مبنـى الفنـدق الذي كنت أدخله للمرة الأولى. بدا المكان عريقـا ومتميـزا يغلب عليه ما يسمى بـالطراز « الكولونيـالي »، فالأثـاث وجزء من الجدران من الخشب البني اللامع رغـم دكنتـه، وكأنه مقتطع من بيت أسرة جنوبية بيضاء، ثرية، في القرن الثامن عشر. قلت لنفسي وأنا أبحث عن حجرة صديقتي بعد أن سألت موظف الاستقبال، ولكن هذا فندق في بلدة جامعية ولو نظرت من النافذة الآن، فلن أجد العبيد يعملون في حقول القطن المترامية بل طلبة وطالبات تغلب عليهم الهيئة الهيبية ويعيدون حسابا الماضي على الأرجح.

كانت صديقتي تسكن حجرة في نهاية الممـر. طرقـت الباب، فتحت. في حومة اللقاء نسيت الفندق وطرازه وراحت صديقتي تسألني. كانت تحب القاهرة التـي أتتهـا كلاجئـة سياسية عقب الانقلاب على نكروما وأقامت فيها لسنوات في بيت يطل على النيل. وكلما ذهبت لزيارتها قالت: « أجلسـي هنا لتشاهدي ذلك النهر الرائع! » وفي كل مرة أكاد أقول لها إنني لن أمانع في الجلوس في مكان آخر، وإنني آلف المشهد كأنه وجهي في المرآة، أكاد كل مرة أقول ذلـك ولكنـي لا

أفعل. وحين أجلس في مواجهة النهر يدهشني حضوره وتحتفي به نفسي كأنها للمرة الأولى تراه.

- تركت القاهرة تغلي، افتتح عمال حلوان العام الجديد بمظاهرات صاخبة في ميدان التحرير وقصر النيل وباب اللوق احتجاجا على تردي الأوضاع الاقتصادية. لقد قبضوا على العديد من العناصر الديمقراطية ولا زالت الحملة مستمرة، حتى أن أحد معارفي التقى بي مصادفة قبل مغادرتي بيومين فقال ساخرا: «ما دمت مسافرة فماذا تنتظرين؟ أن يقبض عليك أولا؟».

قالت السيدة وهي تهز رأسها في أسى:

- عند تولي ذلك الرجل تصورت أنه سيكون امتدادا أصيلا لعبد الناصر. إنه نصف أسود كما تعلمين، ولقد استبشرت بذلك خيرا!

- أي منطق أعوج هذا يا صديقتي العجوز!

- نصف أسود أم نصف أزرق، لا علاقة للألوان بهذه المسائل.

ثم راحت صديقتي تثرثر بهذا الحماس المميز لها وللمسنين عموما عما قامت بتدريسه في فصل الخريف

الدراسي وما سوف تقوم بتدريسه في هذا الفصـل، وعـن المودة التي يحيطها بها كل من في القسم. كانت تتحدث بـلا انقطاع تصل الجملة بالجملة والموضوع بسواه، وأنا أنصـت لبعض ما تقول وأفكر في تلك البرقية الدالة التـي أرسـلها زوجها ديبوا عام ١٩٥٦ إلى المؤتمر الأول للكتاب الزنـوج في باريس. ساعتها كان ديبوا على مشارف التسعين واجـه الاضطهاد المكارثي في السنوات السابقة حيث كان العديد من الناس يتنصلون من علاقتهم بالماركسية بإعلان انتسابه إلـى الحزب الشيوعي الأمريكي وقدم للمحاكمة وسحب منه جواز سفره. قال الرجل في برقيته:

«لست معكم اليوم لأن حكومة الولايات المتحدة رفضت أن تعطيني جواز سفر. إن أي زنجي أمريكي يسافر اليـوم إلى الخارج عليه ألا يناقش الأوضاع العنصرية في الولايات المتحدة أو عليه أن يقول ما تريد وزارة الخارجية أن تقنـع العالم به. وتعترض الحكومة علي أنا بشكل خـاص لأننـي اشتراكي» ثم يحذر ديبوا من أن تصبح أفريقيا أداة فـي يـد القوى الاستعمارية، يقول: "وأثق أن كتاب العالم السود سوف يفهمون هذا، ويضطلعون بمهمة قيادة إفريقيا إلـى طريـق

النور، وليس إلى الوراء، إلى الاستعمار الجديد، حيث يضع رأسمال بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة يـده فـي يـد رأسمال إفريقيا لاستعباد الأيدي العاملة الإفريقية مرة أخرى"

ويا أرملة المناضل الطيبـة لا علاقـة للألـوان بهـذه المسائل! وأرملة المناضل تصحبني إلى خارج الفندق وتركب معي الأتوبيس فتية ونشطة كامرأة في العشرين، ثم تجلـس معي في أحد مقاهي الجامعة تحكي عن القاهرة وأمهرسـت وطفولتها ونكروما وبن بللا وشوين لاي، وأنا أنصت للـذي تقول، وأفكر في الفندق الذي حمل اسـم القائـد البريطـاني اللورد جيفري أمهرست. كان قائدا عظيمـا، تقـول دائـرة المعارف: أبلى بلاء حسنا في حروب بريطانيا فـي العـالم الجديد في مطلع القرن الثامن عشر حتى أن اسمه أطلق على بلدتين، إحداهما في الولايات المتحدة والأخرى فـي كنـدا، ترى كيف أبلى اللورد جيفري بـلاء حسـنا فـي حـروب بريطانيا الاستعمارية وكم من سكان القرى الأصـليين أبـاد وبأي معدل؟ هل حصدهم ببنادق رجاله أم أنه كمـا تقـول الحكايات أهدافهم أغطية مغموسة بالجراثيم فلما تدثروا بها لم

يطلع عليه صباح؟ المهم أن الرجل أبلى بلا ء حسنا ولم يعد في أمهرست هنود... ولا حتى هندي واحد!

وهذا الفندق، فندق اللورد جيفري، يبدو صغيرا جمـيلا ومتميزا وأنا أقترب منه لتوصيل صديقتي العجوز أودعهـا عند الباب. ما إن تدخل حتى أدير ظهري. ولكني هنـا فـي أمهرست الكائنة بالولايات المتحدة، وصلتها بالأمس، وأيـان أولى وجهي فأنا الآن فيها، ولشـهور طويلـة قادمـة. إذن سأعود إلى برينس هاوس لآتي بالهدية التي اشتريتها لمايكل من لندن وأذهب إليه في القسم أفاجئه بوصولي.

طرقت الباب ودخلت. جذبت الشـريط عـن الورقـة الملفوفة وأنا أقول:

- إنها لا تضاهي تلك الصورة الأخـرى وهـو يركـب حصانه بين الأحراش والتي تعلقها في بيتك. لكن هذه أيضا جميلة!

فردت صورة مصقولة على خلفية من الأحمر النـاري لوجه تشي غيفارها مرسوما بالحبر الأسود.

- هذه لكي تعلقها هنا في مكتبك بالجامعة!

ترى هل سيكون هذا الحفل كبيرا كذلك الذي أقيم في نهاية العام الماضي تكريما لمايكل بمناسبة استقالته من رئاسة القسم؟ ليلتها اكتظ المكان بالمدعوين وفاضت بهم ممرات البيت بما في ذلك المطبخ، وحين بدأ الرقص بدا وكأن ألواح البيت الأرضية الخشبية العتيقة سوف تهوي تحت أقدام الراقصين وهم يدقون الأرض بانتظام على إيقاع الموسيقى الصاخبة. كانت رسالة الاستقالة التي قدمها مايكل ثاويل إلى مدير الجامعة وأطلعنا عليها تكشف أن هذا الشاب الجامايكي الفارع الطول الذي كُلّف وهو دون الثلاثين بمهمة تأسيس قسم للدراسات الأفرو – أمريكية، وهو الأمر الذي قام به فعلا في السنوات اللاحقة، شاب موهوب ومتميز يبدو وسط تكالب الغابة الأمريكية كفارس عفيف وجهته مغيرة. أقيم حفل التكريم في بيت إحدى المدرسات بالقسم وامتد حتى الساعات الأولى من الصباح، وحين غادر المدعوون مجاملة وأوغل الليل ساد صمت كأن الباقين على اتفاق، وأخذت امرأة جنوبية سوداء تترنم بأغان شعبية من أغاني العبيد في المزارع ثم راح صوتها يعلو في هدأة الليل حادا وقاطعا كأنها تشهد الخلق على وجع الزمان تقاضيه.

لماذا تتسم حفلات الأفرو – أمريكيين بكل هذه الحيوية كأنهم يحملون معهم إلى بيت الحفل سلالا أودعوهـا ثمـار العمر من قدرة على الحياة والفرح والأحـزان؟ وهأنـا الآن ذاهبة إلى حفل أفرو – أمريكي آخر، حفل زفـاف، فالليلـة يتزوج مايكل من صديقته كيسي أم الطفلين الجميلين. وأبكر في الذهاب أحمل معي هدية للعروس شالا اشتريته من أحـد أزقة ذلك الخان بالقاهرة العتيق الـذي تتسـرب شـوارعه وتتفرع من ساحة المسجد الحسـيني ذي المئذنـة الرشـيقة الواحدة. هذا شال فلاحي مصري شمسي اللون هديـة تليـق بالخمرية كيسي. وأدخل البيت المكتظ هـذه المـرة أيضـا بعشرات المدعوين. كان مايكل يلبس قميصا إفريقيا فضفاضا تزينه خطوط سوداء تتداخل في أشكال هندسية جميلة. البيض في المدعوين قلة، أم العروس وعدد من الأساتذة من أصدقاء مايكل. لماذا في الغربة نتشبث بالجذور هكذا ونروح في كل محفل نؤكد هويتنا، وهل هو الخوف أم الحنين، أم أنه الزهو بحكايتنا المغايرة؟ حين رأيت صديقي الغاني يلـبس قميصـا إفريقيا أبيض موشًى بالتطريز العربي حـول فتحـة العنـق لاحظت أنني أيضا قد جئت برداء شبيه موشـى بـالتطريز

الفضي، وكان كل الأفارقة قد جاءوا على غير العـادة فـي حياتهم اليومية بالجامعة بملابس مميزة لمناطقهم أو بلادانهم.

ولما كان مايكل غريبا في الولايات المتحدة وافدا عليها، فلم يحضر حفل زفافه أحد من أهله. ووقف يستقبل الضيوف ويرحب بهم ويقوم بدور العريس وأهله. وكان قد قام بطهـو طعام العرس بنفسه، كمية هائلة من أكلة جامايكية مكونة من الأرز وفول الصويا واللحم ممزوجة ومتبلة بالفلفل الحار.

قالت لي زوجة أستاذي وهي امـرأة صـغيرة الحجـم تقارب الستين تعقص شعرها الفضي إلى الخلف:

- لقد كان أبي يا رضوى يهوديا من وسط أوروبا، كـان يهوديا، ولكنه لم يكن أبدا صهيونيا.

هل لاحظت شيئا من نبرة اعتذاريـة فـي حـديثها أم توهمت ذلك؟ فاجأتني كلماتها. كنـت أعـرف أن زوجهـا، المشرف على رسالتي، من أصل يهودي، ولكني كنت أعرف أيضا أنه شيوعي. لم أكن أتوقع أن يثار موضوع الدين، على الأقل ليس هكذا بلا مناسبة. كانت المرأة قد شربت ذلك القدر الذي يجعل الإنسان الطيب أكثر طيبة يرنـو إلـى الآخـر، يقترب منه بغية التواصل، مسقطا حواجز الانكماش والقلـق

من عدم تقبل الآخرين. بدت لي السيدة في سن أمـي، أردت أن أقبّلها وأقول لها كلمات حنونة، ولكني لم أكن شربت بمـا يكفي لمغالبة حيائي.

كان ضوء الممر الذي وقفت فيه مع زوجة أستاذي هو مصدر الضوء الوحيد لصالة البيت التـي أطفئـت أنوارهـا وتحولت إلى قاعة مكتظة بالراقصين وراح شـاب أفـرو – أمريكي يحمل صفارة معدنية صغيرة يطلقهـا بـين الحـين والآخر خالقا فواصل للموسيقى وحالة من الحيوية الاستثنائية والمرح. شاب أسمر له وجه باسم وشارب ولحية ويتحـدث بصوت عال، ويمد حروف الكلمات بذلك الإيقـاع المميـز لحديث السود في الولايات المتحدة. والعريس مايكل يـروح ويجيء كأم العروس في المثل المصري. وأحد الخبثاء مـن زملائنا بالقسم يميل علي كامرأة من عواجز الفرح ويهمـس في أذني وعيناه تلمعان:

- أتعرفين ما الذي يدور في الخارج؟
- ماذا؟
- هناك سيدة أتت من واشنطون بسيارتها تقـف خـارج البيت تقول إنه ما دام مايكل سيتزوج فهـي الأولـى

بذلك. وتهدد برجم البيت بالحجارة. من المؤكـد أنهـا مجنونة!

أجبته وأنا أضحك:

- لو طال بنا المقام في هذا البلد الكريم فما أدراك كيـف ينتهي الحال بنا!

- وقالت صديقتي الأفرو – أمريكية العجوز:

- أتعرفين أن مايكل اختار أن يتزوج في ذكرى مـيلاد ديبوا؟

ومال علي أستاذي حين مررت بالقرب منه وصرخ في أذني حتى يصلني ما يقول عبر الموسيقى الصاخبة.

- لقد قرأت فصلي الرسالة.

ثم أبعد فمه عن أذنـي. كنـت أحـدق فيـه بعينـين مستفسرتين في انتظار المزيد. ومال علي مرة أخرى:

- في الفصل الذي تتناولين فيه نهضة هـارلم تركـزين على كتابات آلين لوك كأن لم يكـن هنـاك غيـره... سنتكلم في ذلك بالتفصيل على أي حال.. سنتكلم فـي وقت آخر!

لو أستطيع فقط أن أنتحي ركنا أغربل هذا القلق الـذي اجتاحني بكلمات أستاذي. لا مكان للجلوس.. عيناي تبحثـان عن مكان أقف فيه في هدوء لدقائق. الشاب صاحب الصفارة يطلبني للرقص. قلت له وأنا أتبعه:

- سأخيب ظنك. إنني راقصة رديئة وهذه الرقصة بالذات تكشف ردائتي.!

ضحك الشاب قائلا:

- سأعلمك!

لماذا بعض النـاس خفيفـو الـروح يثيـرون الألفـة والارتياح؟ هذا الشاب لا أعرفه ولكن هـو يعلمنـي هـذه الرقصة يذكرني بأحب أخوتي الثلاثة إلـى نفسـي. حـين رقصت قبل دقائق مع ذلك الرجل الأبيض الذي يدرس بقسم اللغة الإنجليزية راعني أنه لا ينظر أمامه وهو يرقص. لماذا طلبني للرقص إذن؟ كان مستوعبا بشكل مطلق في ذاته فـلا يرى الآخر أمامـه. ذكّرنـي الرجـل بشـخوص «الأرض الخراب» الذين يسيرون في دائرة وقد ثبت كل عينيه علـى قدميه "لقد سمعت دورة المفتاح في الباب مرة، مرة واحـدة" تتحول العيون وتنسحب، تنغلق بوابات الروح وتتأكد عزلـة

السجناء برغم الدنيا الواسعة. لماذا طلبتني للرقص أيها الرجل الأمريكي؟ ها قد أصبتني بالكآبة! والشاب الأمريكي الأسود يعلمني الرقصة فلا أتحرج من ثقل جسدي المتعثر في الحركة، ويسميني « أختي » على عادة الأفرو – أمريكيين فيما بينهم، ويرقص، ويطلق صفارته، ويضحك، ويثرثر، لقد أتى إلى بيت العرس حاملا هديته سلة من الفرح!

شرعت في كتابة فصل ثالث من الرسالة في الوقت نفسه الذي رحت أعدّل بعض أجزاء من الفصلين اللذين سبق أن كتبتهما في القاهرة. كانت ملحوظة أستاذي ليلة الحفل قد أثارت قلقي، فكان أول ما فعلت صباح اليوم التالي أن أعدت قراءة ما كتبت بعين متربصة ناقدة. ولما التقيت بعد ذلك بأيام بلجنة الإشراف فوجئت بما لم أتوقع من قبول بل وتقريظ، وبدا أن ملحوظة الأستاذ كانت هي مأخذه الأساسي على ما قرأ. خرجت من هذا اللقاء بدفعة حملتني متحمسة إلى المكتبة أجتهد لتحسين ما كتبت ولإنجاز ما تبقى علي من فصول في الرسالة كانت قد بدأت تتخذ شكلا شبه نهائي في ذهني.

رحت أعمل بدأب وإقبال لم يعد مصدرهما رغبة في التحصيل السريع بل اهتمام عاد يتملكني بالموضوع الذي أبحث فيه.

أقضي الصباح غالبا بين أرفف الكتب والدوريات بالمكتبة، أستكمل هذا الجزء أو ذاك مما أشعر به ناقصا في المادة التي أجمعها، وفي المساء والليل أجلس في حجرتي التي أصبحت لي وحدي أجمع أفكاري وأرتبها وأجلس للكتابة.

وفي اليوم متسع، أغادر المكتبة عند الظهر لكي آكل وجبة سريعة في مقهى مركز الحرم الجامعي المواجه لمبنى المكتبة، ثم أعود إلى المكتبة أو حجرتي لمواصلة العمل. في أول كل شهر أحمل النشرة الخاصة بالبرامج الثقافية المشتركة للجامعات الخمس أختار ما أنوي حضوره من عروض ومحاضرات.

ولا شيء يعيق حماس المرأة الصغيرة تتدثر بالمعطف الثقيل وغطاء الرأس (الشال الصوفي) وتنزل إلى كلية هامشير لحضور فيلم من شيلي. الأتوبيس تأخر ولسعة البرد تنفي التفكير في سواها. الثلوج غامرة ودرجة البرودة

تتجاوز العشرين تحت الصفر والمرأة كقنفذ صـغير تبغـي إخفاء رأسها وهي ليست بقنفـذ. والأنـف يتجمـد، تـأخر الأتوبيس. والبرد ساعة العودة أشد ولكن ذلك الذي شـاهدته فذ، غدا سوف أذهب لمشاهدة آخر.

في الوقت متسع، والعشاء في الوحدة كئيب، تلوك المرأة الأكل تفتقد له طعما يميزه. ويا آنا تعالي غدا لتناول العشـاء معي.. ويا سوزي وكلارا هل تأتيان الأسبوع القادم للعشـاء معي؟ وما رأيك يا رشنا في المجيء مع راجنـدار لتنـاول العشاء معي؟ نعم الآن لو أردتما. وفي جمع الصحاب يختلف المذاق وتستبدل المرأة الغريبة جلستها وهي تأكل محدقة في فناء الغرفة برفقة ظلها الممتد أمامها بالصخب العفوي. وهذا المكتب حين يمتد عليه غطاء أبيض من الورق يصير مائـدة أنيقة، ترتب الصحون والأكواب الكرتونية عليها، ثم نجلـس نأكل ونثرثر وندخن في انتظار أن يغلي الماء لنصنع القهوة خاتمة العشاء وسيدته.

ولكن الصحاب لا يأتون كل يوم. ووجبة المساء كل يوم تتكرر. قطعة من الدجاج أتبلها بسرعة وألفها بورقة فضـية وأتركها في الفرن نصف ساعة، وأفتح علبـة مـن الـذرة

المسلوق أسخنها في علبتها، وأخرى من البنجـر المحفـوظ وأضعها في طبق كرتوني ويكون العشاء سريعا في إعـداده وأكله، ثم آخذ كوب القهوة وأنزل لإنجاز ذلك الطقس اليومي الآخر الأكثر إثارة، مشاهدة نشرة أنباء الساعة السابعة مساء في قاعة التلفزيون ببرينس. نجلـس أمـام الجهـاز الكبيـر المرفوع على رف خشبي أمامنا نتابع آخر الأخبار العالميـة والمحلية تقطعها الإعلانات التجارية عن منتجات مستحدثة أو قديمة. معجون للأسنان، مسحوق للتنظيف، مـأكولات ذات قيمة غذائية عالية للقطط والكلاب، ملابس داخلية، قـروض بنكية، ثم يتابع المذيع ما لديه من أخبار، وحين تنتهي النشرة يتفرق العشرات الذين كانوا في القاعة يتابعونها. وينصـرف كل إلى أشغاله. وأنصرف إلى حجرتي للكتابة بالإنجليزيـة. أكتب مسودة صفحات أضيفها لما أنجـزت مـن الرسـالة، وبالعربية أكتب رسائل تفيض بحنين المـرأة الوحيـدة إلـى القاهرة.

٩

ذابت الثلوج وبدا الربيع وشيكا وإن بقيت علـى حالهـا الأشجار عارية الفروع يصفر بينها هواء قـارس. ورحـت أواصل دراستي وأنجز وأتواصل رغم الاختلاف مع رفـاق البيت الواحد. وأنتظر كل يوم ساعة توزيـع البريـد أمـام الصندوق الصغير الذي يحمل لي الفرح أو اللاشيء. وتأتيني في المساء أحيانا مكالمة تلفونية مـن صـاحبتي الأفـرو – أمريكية العجوز تحمل لي خبرا عن البلاد التقطته لتوها من مذياعها الأسود الكبير. يتوغل مارس وينقضي، ويأتي أبريل بالأمطار الغزيرة وآلام الروماتيزم المبرحة. هل هي قسـوة أبريل حين يقلّب بشبقه المطري مواجع الجسد المحـروم، أم أنه حنين الجسد لطمي تربته السهلية فاض إلى حد الوجـع؟ أمطار تنسكب على الأرض بلا هوادة أو نهاية، أرقبها، نافذة حجرتي وأواصل الكتابة. وزميلتي الجديـدة التـي تسـكن الحجرة المجاورة تدعوني لتناول كـوب قهـوة بحجرتهـا وتعرفني بنفسها، وتحكي لي بحماس عن عملها كمتطوعـة

«بفياق السلام» في تايلاند. وقهوتك أيتها المرأة الأمريكيـة الشريرة أو البلهاء تقف بحلقي كما حديثك عن مهمتك النبيلة عن نشر الحضارة في ربوع الغابة الآسـيوية. وصـديقتي الأمريكية الأخرى التي تعرفت عليها في بداية إقـامتي فـي أمهرست، والتي تدرس في كلية التربية صـارت تربكنـي بأسفارها المتكررة. وأقول ونحن نأكل معا: هاتـان العينـان العسليتان الصافيتان لا تحملان إلا خيرا، أم أنني لا أفقه شيئا في هذا الوجود؟ ولكن كل من في الجامعة يعرف العلاقة بين قسم التربية الدولية فيها ووكالة التنمية الدوليـة، وصـاحبتي تسافر إلى إيران لتسهم في برنامج لمحو الأمية، وأنا أسـأل: شريرة هي وأنا لا أفقه في البشر أم هي بلهـاء وأداة؟ هـذا البلد لا يقرئنا الأمان، أروح أنكمش وأفرز من الحرص قشرة تحميني من ورثة المؤسسة.

أستمع لمحاضرة قائد هندي مـن السـكان الأصـليين يتحدث عن الحركة الهندية الأمريكية التـي تأسسـت عـام ١٩٦٨ ووحدت داخلها أكثر من عشرين منظمة. وأنصـت لحديثه عن خرق السلطة المتكررة للاتفاقات المبرمة بينهـا وبين الهنود. «وصل عدد الاتفاقيات ٣٧١ اتفاقيـة، عقـدت

جميعا لتخرق. كل اتفاقية منها كانت تحدد الأراضي الهنديـة التي لا يجوز لحكومة الولايات المتحدة التدخل في أمورها ثم تخرق، حتى لم يبق لنا سوى المعازل» قال الرجل النحيـل وعلى شفتيه شيء من ابتسامة: «لقد أنجبـت ثلاثـة عشـر طفلا.. هذه أيضا قد تكون طريقة للمقاومة!» والرجل أمامي بهيئته المميزة، ضفيرتيه والسير الجلدي حول رأسه وعقـد الخرز الملون في رقبته وسترته المشرشرة، يخرج من سياقه السينمائي الزائف إلى التاريخ مكان فأنتمي إليه وأتعلم.

وأشتعل بالتصفيق والحماس لرجال شيليين يقفون علـى المسرح بعباءاتهم الشعبية يحملون آلات النفخ الآندية. هـل يبكون قتلاهم أم يمجدون الحياة أم يفعلون الأمرين معا؟ ذكر المذبحة لا زال يدور، أستمع لبعض تفاصيلها مـن زوجـة قتيلها الأول، أللندي في كنيسة صغيرة ملحقة بجامعة ييل في نيوهفين. أتوجه برفقة بعض الصحاب لحضور مؤتمر يعقـد ليوم واحد عن نشاطات المخابرات المركزية الأمريكية. وفي المساء، في برد أبريل، نقف بباب الكنيسة ننتظـر أن يفـتح بابها للاستمتاع إلى محاضرة مسـز أللنـدي. أهتـف مـع الحاضرين لحكومة الوحدة الشعبية و«للشعب الذي لن يهـزم

ما دام متحدا»، أهتف كواحدة من أهـالي القـارة الجنوبيـة الملاحقين في الشوارع بالعصي والقنابل المسـيلة للـدموع. ذكر المذبحة يدور. أشتري أسطوانتين لأغاني فيكتور هـارا وتروح آنا، صديقتي البورتوريكية، تترجم لي ما يستعصـي علي فهمه من كلمات، وعلى مغلـف إحـدى الأسـطوانتين قصيدة هارا عن الخمسة آلاف معتقل في اسـتاد سـانتياغو والتي كتبها قبل أن يقطعوا يديه ويقتلوه. ما للمذابح تسـكنني أم أنها تسكن هذا الزمان ولست غير شاهدة؟

وأمر في الطريق بمحل بوسـط البلـدة يبيـع الجـبن والمشروبات فأدخله لأشتري فتستوقفني إلـى يمـين البـاب بطاقة صغيرة بين عشرات البطاقات الأخرى عليهـا رسـم جمل. وأتوقف أمام هذا الجمـل الصـغير كطفـل كـأنني بالمصادفة شاهدت في المرآة نفسي. هل هي طرافة الرسـم الذي يبدو كواحدة من الرسوم المتحركة في فيلم للأطفـال أم هي نظرة العتب الحزين فـي العينـين اسـتوقفتني؟ أدفـع بالقروش القليلة إلى البائعة وأحمل البطاقـة وأسـير عائـدة باتجاه الجامعة أستعيد بعض أبيات « الولـد الفلسـطيني » دحبور الخارج من مذبحة أيلول:

ويا جمل المحامل سر بنا فطريقنا شوك

وليس بغير ضـرسك يطحن الشـوك

وأصل لحجرتي، أخرج البطاقة الصـغيرة ثـم أجلـس لأكتب عليها لمريد بضع كلمات عن كل ذلك.

رغم واقعة العشاء التي كدت أطبق فيها علـى عنـق جارتي (المتطوعة في «فيلق السلام» سابقا) حين قالت لي وهي في حجرتي إن عبور المصريين إلى سيناء عـام ٧٣ غزو واعتداء وما كلفني الشرح الهادئ من جهـد عصـبي، رغم هذه الواقعة فإنني كنت في الأيام الأخيرة من أبريل في حالة من التصالح العام مع الوجود ونفسي لم أعشـها منـذ وصولي إلى الولايات المتحدة. هل هو التخفف من ملابـس الشتاء الثقيلة ورؤية النوافذ المشرعة علـى الأخضـر فـي الشجر؟ أم أنه شعوري بالإنجاز ولم يتبق على إنهاء الرسالة سوى كتابة الخاتمة والمقدمة؟ أم أنها قصيدة مريد الجديـدة « سعيد القروي وحلوة النبع » التي أتتنـي بالبريـد كفـرح مباغت أستجيب له في الحال بإرسال برقية تهنئة؟ أم كانـت تلك الأمور مجتمعة وشيء آخر يأتي رحـت أتابعـه عبـر الصحف ونشرات الأخبار ووجوه النـاس؟ وكنـت أنتظـر

وصول مريد في منتصف مايو وأرغب في مفاجأته بأنني سلمت الرسالة كاملة لكي تطبع على الآلة الكاتبة قبل عرضها على المشرف، وبهدية صغيرة أخرى وهي ترجمتي إلى الإنجليزية لقصيدته الملحمية الطويلة.

هكذا رحت أعمل كورشة صغيرة متعددة الأقسام، أكتب في الرسالة، وأترجم في القصيدة، وأشارك بشكل يومي في أسبوع لحركات التحرر الوطني، نناطح الصهاينة، ونوزع أدبياتنا، ونعلن تضامننا مع ممثلي المنظمات الوطنية والديمقراطية. وأتابع عبر النشرة الإخبارية في التلفزيون آخر أخبار الحرب الفيتنامية. وحين يوغل الليل حتى تكاد يطلع عليه صبح جديد تسكن الورشة الصغيرة وتغلق رضوى عينيها استعدادا للنوم.

في الشارع جلست على المقعد الخشبي في انتظار الأتوبيس أفكر في تلك الفتاة الهندية الحمراء النحيفة التي تعزف على آلة نفخ شعبية والتي شاركت في أسبوع حركات التحرر. لماذا أربكتني كلماتها هكذا أم أن الحكاية عن قرب هي المربكة؟ هل هكذا التاريخ كالشلال جارف؟ وأي أمل في وصل ما انقطع؟ أيتها الفتاة الهندية النحيلة، أخاف حكايتك

ويوجعني صوت مزمارك، وما العمل؟ وأركب الأتوبيس الأصفر الذي يحمل اسم الجامعة وبيدي الفيلم السينمائي الذي أريد إعادته إلى نيويورك، أنزل في وسط البلدة وأدخل مكتب البريد، أدفع بالفيلم إلى الموظف وأنتظر أن يخبرني بالمبلغ المطلوب، وأنا أفكر كم أن اختيارنا لهذا الفيلم كان موفقا. فيلم تسجيلي من إخراج مجموعة من الشباب الأمريكيين اسمه «ثورة حتى النصر» يربطون فيه عبر مجموعة من الصور الوثائقية بين جرائم النازية ضد اليهود وجرائم الصهيونية ضد الشعب الفلسطيني. فاقت الاستجابة كل توقعاتنا فعرضنا الفيلم ثلاث مرات، وفي كل مرة كان الحاضرون يصاحبون غناء الفدائيين في خاتمة الفيلم بالتصفيق المنتظم وبتكرار كلمة فدائي التي بالنشيد. ليتك يا مريد هنا، إذن لتشاهد الفيلم وجاء معي الليلة إلى حفل الفرقة الدومنيكية!

قبل العودة إلى برينس هاوس مررت بأحد المقاهي وتناولت وجبة سريعة، أي سندوتش هامبرغر وكوبا من القهوة، وعدت إلى البيت. غسلت وجهي وجلست إلى المكتب لأنجز شيئا مما علي قبل الذهاب إلى الحفل في الثامنة مساء.

كانت فرقة « اسبرسيون هوفن » ستقدم حفلا تلك الليلة الموافقة مساء ٢٩ أبريل بإحدى قاعات « ساوث ويسـت » إحياء للذكرى العاشرة لغزو القوات الأمريكيـة لجمهوريـة الدومينيكان. وكان حفلها يشكل الليلة الختامية لأسبوع التحرر الذي أقامته مختلف المنظمات الوطنيـة والديمقراطيـة فـي الجامعة.

اكتظ المكان بالطلاب الذين شارك معظمهم في نشاطات مهرجان التحرر على مدى الأيام الستة السـابقة. لـم تكـن القاعة كبيرة ولم يكن بها مسرح، ومع ذلك كان كل شيء قد أعد لاستقبال الفرقة. فنُصبت منصة خشبية صغيرة وأمامهـا مباشرة وضعت صفوف من الكراسـي المتلاصـقة تركـت هوامش في الجانبين تسمح بوقوف من لا مقعد لـه. وهكـذا حين دخلت الفرقة بدا المكان وكأنه حشد كبير مـن البشـر يحيط بأربعة من الشباب العازفين المغنـين. افتـتح أحـدهم الحفل بكلمة سياسية عن المناسبة ثم بدءوا بأغنيـة لفكتـور هارا أعقبوها بأغنية من أغانيهم وراح أحدهم يعلّم الحضور لازمة الأغنية ويطالبهم بالمشاركة فـي الغنـاء. واشـتعلت المشاعر المشتعلة أصلا بفعل ستة أيام من العمل التحريضي

وراح الكل يغني. وقالت فتاة صغيرة الحجم شاحبة الوجـه، تجلس بجانبي:

- تصورت أنني سأحضر حفلا موسيقيا، ولم أكن أعرف أنني جئت لمظاهرة!

وتأففت. فابتسمت وقالت بصوت عال حتى لا يفوتها ما أقول:

- أما أنا فكنت أعرف!

وتابعت الغناء.

هل كان حماسنا تلك الليلة مصدره نجاح الأسبوع الذي نظمناه أم هذه الفرقة وأغنياتها الجميلة، أم أننا كنا قد بـدأنا نعي من خلال متابعتنا للأخبار كل يوم وإن كنا لـم نسـتبق الأحداث بأن حقبة من التاريخ تنتهي لصالحنا؟ وهـل كـان ممكنا أن يعلن النبأ علينا في جو احتفالي أبهى من ذلك؟ لقـد أتى بشير ليهبط علينا من قمم الأولمب ولا تحمل هيئته شيئا من الشعر أو الأسطورة، شاب نحيل ينسدل شـعره الأشـقر الناعم إلى كتفيه ويلبس قميصا عتيقا من قماش صوفي خشن وبنطالا من الجينز الكالح. سار مباشرة إلـى حيـث تقـف

الفرقة، فتوقف العازفون، اقترب من المغنـي الـذي بيـده الميكروفون وهمس في أذنه. فأعلن المغني:

« سقطت سايجون في يد الثوار! »

كان مشهد جلاء آخر رجالات اليانكي من سايجون عبر ثقب في سطوح سفارتهم حيث انتظرتهم طـائرة هليكـوبتر مصدرا لحالة من الهستيريا العامة. سقط العلـم الأمريكـي وسط أنقاض الحرب الفيتنامية، وكان على المؤسسة أن تتكر تلك الصورة وأن تقدم بدائل لها ترضي الغـرور الـوطني وتكرس الأوهام عن الذات، هكذا راح الإعلام يتغنى بأمريكا الجميلة، وبحلمها النبيل، وبالأم الإمبريالية العطوف وإن رد لها بعض أولادها عطاءهـا جحـودا. وأخـذت محطـات التلفزيون تقدم مقابلات مع أسـر أمريكيـة تبنـت أطفـالا فيتناميين قبل ذلك بسنوات.

ثم نقلت وكالات الأنباء خبر طائرة النقل الأمريكية التي حملت إلى الولايات المتحدة عدة مئات من الأطفال الفيتناميين إنقاذا لهم مما لحق ببلادهم من هول. وجلس الأمريكيون أمام شاشات التلفزيون يتابعون في نشرة أخبار السـابعة مسـاء الرئيس فورد وهو يستقبل الأطفال في المطار ويحمل بـين

ذراعيه طفلا رضيعا من بين ركاب الطائرة. والمؤكد أن رجالا ونساء عديدين ممن يسكنون إلى الوهم الأمريكي المسمى حلما قد مسحوا دموعهم سرا أو على مرأى من آخرين أمام هذا المشهد الذي يمس شغاف القلوب ويؤكد «الإحسان الأمريكي»، والمؤكد أيضا أن العديدين ممن يعون الطبيعة الكابوسية للحلم أو يعيشون خارج سياقه قد تابعوا المشهد بمزيج من الارتياح والمرارة وهم العارفون بالبئر وغطائها، وقد يكونون ضحكوا ساخرين من تمثيليات «التسامي الوطني» أو سبوا المؤسسة وممثليها، أو شربوا وهم يتذكرون مظاهراتهم المناهضة للحرب نخب المدينة المحررة، ثم خرجوا بعد ذلك يسعون في الأرض وقد أودعوا مخلاتهم القماشية الكالحة المعلقة على ظهورهم وزر فيتنام جنبا إلى جنب مع الآثام الوطنية الأخرى.

أما لنا نحن الوافدين من أبناء وبنات العالم المجلود بالسوط الإمبريالي فلم يكن خبر التحرير ورفع علم الثوار على سايجون مجرد خبر مفرح تمنيناه وتناقلته وكالات الأنباء يوما فتحققت الأمنية، بل كان الأمر يخصنا ويدخل في صلب حكايتنا وتاريخنا ومستقبلنا، يؤكد لنا أن ما نراه

ونعتقده ونقوله ونتوقعه ونعد له، في نهاية المطاف ومهما بدا غير ذلك، هو الصحيح الذي لا يصح سـواه. كـان العلـم الإمبريالي قد سقط وكنا قد شاهدنا كيف!

١٠

أمسكنا بمطرقتين وأخذنا أنا وزميلة لي نتعاون في فـك قوائم السريرين. حملنا الإطـارين المعـدنيين ووضـعناهما متلاصقين تحت الواجهة الزجاجية العريضة للحجرة، أعـدنا إليهما الحاشيتين وفرشناهما بملاءة بيضـاء كبيـرة كأنهمـا سرير واحد، ثم وضعنا أخيـرا الغطـاء الأزرق المنقـوش بورود صغيرة بيضاء والذي كنت اشتريته في اليوم السابق. ولما انتهينا من ذلك أصبح في الحجرة بدلا مـن السـريرين المفردين ذوي الأعمدة واللذين كنت أستخدم أحـدهما للنـوم والآخر كأريكة للجلوس سرير مزدوج لا يقع عـن الأرض سوى بضع سنتيمترات. وكنت استعد لاستقبال مريد.

انتهيت من كتابة الرسالة قبل ذلك بيـومين، وسـلمت المخطوطة كاملة إلى من ستقوم بطباعتها على الآلة الكاتبـة قبل عرضها على المشرف، واستطعت بعد بحـث أن أجـد مسكنا مناسبا في الأجر والموقع واتفقت مع صـاحبته التـي تدرس في الجامعة على موعد إخلائها له. ثم حـدثت مسـز

روبنسون مديرة برينس عن مجيء مريـد، وأخبرتهـا أنـه سوف يقيم معي في حجرتي لأربعة أيام إلى أن ننتقـل إلـى الشقة التي استأجرتها.

وبدا لي كل شيء في ذلك اليوم المشمس من أيام شـهر مايو كما أردته أن يكون. نظفت الحجرة في الصباح وأعددت طعاما، ثم تحممت وبدأت ألبس وأتزين استعدادا للذهاب إلى المطار. ارتديت لباسا من قطعتين، جونلة يتداخل في نسيجها الصوفي اللونان الرمادي الفاتح والزيتوني الداكن، وبلـوزة من الصوف الخفيف زيتونية اللون مفتوحة بعـض الشـيء عند الصدر ولها كمان طويلان. وحول رقبتي عقدت سلسلة من فضة فاستقرت على صدري أعلى الثديين، حلية فضـية جميلة من مشغولات القبائل الصغرى في الجزائـر، كحلـت عيني ثم رحت أصفف شعري الذي طال على غير المألوف حتى كاد يصل كتفي، ثم نظرة أخيرة في المرآة ففاجأني إلى حد الدهشة جمال المرأة أمامي. ما الذي يحدث لهذه المـرأة الصغيرة حين تستعد للقاء حبيبها، وأي شيء ذلك الذي يطرأ عليها فتتألق هكذا كنجمة أو قصيدة؟ هل هو الفـرح يليـق برضوى حين تسكنها رائحة الليلك تسري ساعة الغسق عبر

النوافذ المشرعة؟ أم أنها الأنثى يليق بها الصـحو؟ وألـبس جوربي وحذائي ثم اتصل تلفونيا بالمطـار للتأكـد مـن أن الطائرة ستصل في موعدها.

وكم مرةً يا مريد افترقنا، وكم مرةً سوف نلتقي؟ وتلـك الغصة في الحلق ساعة يمضي واحدنا إلى داخـل المنطقـة الجمركية ليجلس متجاهلا ذلك الثقل المتزايد بأسفل المعدة في انتظار الإعلان عن موعد الطائرة. ولماذا في كل مرة نفترق أو نلتقي فيها تبقى صورتك هكذا حاضرة التفاصيل، مشيتك، لفتة رأسك، قصة شعرك، نظرة عينيك الصغيرتين من وراء زجاج نظارتك ورموشك، حتى شكل حذائك ولون جوربك؟

وعبر الواجهة الزجاجية لقاعة الانتظار بالمطار ألمحك تأتي فتأتيني فرحة ناعمة كرأس عصفور مبلل وأخضر ينقر قشر بيضته ويطل، ثم تخرج إلي ونلتقي، نتعانق وكأننا الولد والبنت اللذان أضاع العشق عقلهما فراحا يركضان كمهـرين ولكن لا مكان لركض خيول في هـذا المطـار الأمريكـي الحديث الذي تشبه بناياته علب الثقـاب الكرتونيـة. نسـكّن فرحنا الأهوج داخلنا ونجلس متجاورين في السـيارة التـي تحملنا من المطار معا هذه المرة إلى أمهرست.

وفي حجرتي بالجامعة نتبادل القبلات والأخبار، وتناول العشاء، ثم نجلس على السرير ونشرب قهوتنا وندخن ونمارس ذلك الطقس الجميل بين صديقين حميمين قديمين التقيا، طقس الإفضاء والثرثرة والتواصل بعد غياب.

من القاهرة حمل لي مريد بنا عربيا وسجائر كليوباترا التي أفضلها وبعض تفاصيل ما حدث بمدينة المحلة الكبرى.

قال مريد:

- اعتصم العمال وأضربوا وسيطروا على المدينة تقريبا. وسمعت أنهم أقاموا معرضا بإحدى الساحات علقوا فيه على حبل بعض ما وجدوه من لحوم ودجاج في مواجهة حبل آخر علقوا عليه أقراص الفلافل. ثم اقتحمت قوات الأمن المركزي المدينة، بعد أن كانت قد ضربت حولها حصارا لعدة أيام، واحتلتها.

- حدث إطلاق نار؟

- نعم وسقط من العمال عدد من القتلى.

- كم؟

- لا أدري، لكنهم أكثر من عشرة، هذا ما سمعته.

هل أبطأنا الخطو على غير قصد، ونحن نسير باتجـاه مركز البلدة، أم أن خطواتنا من الأصل كانت بطيئة ونحن لا نسعى إلى الوصول إلى مكان محدد في وقت محدد؟ ربما لم يكن بطئا بل كان ثقلا ما في حركة الجسد والساقين «إنهـم يقتلوننا لأنهم خائفون» رحت أكرر لنفسي ثم أنقل ما أقـول لمريد.

- إنهم مذعورون – قال مريد – حتى أن موت أم كلثوم كان يشكل بالنسبة لهم عبئا حقيقيا لا يعرفـون كيـف يواجهونه. فهم يخشون خروج الناس في حشـد إلـى الشارع حتى لو كان ذلك في وداع ميت!

هل تصدقين أنهم ظلوا لعدة أيام ينشرون في صـحافتهم أخبارا متضاربة عن صحة أم كلثوم؟ فهي يوما قـد «مـات إكلينيكيا »، ثم هي في اليوم التالي «لا تزال معنا» وكـأنهم يخشون مجرد الانفعال المفاجئ للناس، مجرد أن يشعر الناس بأي شيء حتى لو كان الحزن! وبالمناسبة ماتـت أم كلثـوم وأذاعوا مرات ومرات أغانيها العاطفية وتجاهلوا تماما كـل أغانيها المرتبطة بالمد الوطني في الخمسينيات والستينيات».

كنت قد شاهدت طرفا من الجنازة في نشـرة الأخبـار بالتلفزيون. ولم يفاجئني بحر البشر الذي راح يمـوج حـول جثمانها بقدر ما فاجأ ذلك كل الطلاب الأمريكيين الذي رأوا المشهد والذين راحوا يسألونني باهتمام عن حكاية هذه المغنية التي يثير موتها كل هذا الحزن في كل هؤلاء الناس. أجبتهم بأن المرأة كانت مشهورة جدا، ومحبوبة جدا، وأنها تربعـت على عرش الغناء في مصر والعالم العربي كلـه لعشـرات السنين. وقد تكون إجابتي بدت مقنعة لزملائي الأمريكيين أو لم تبد كذلك، ولكني حين انتهت نشرة الأخبار وصعدت إلـى حجرتي كنت أعرف أن ما قلته لا يفسر ذلك التماس النـادر بين تلك المرأة وجماهير الناس. هل هو حضورها الإنسـاني وذكاؤها الشديد وموهبتها في الغناء التي فتحت لها الطريـق من «الآنسة أم كلثوم إبراهيم» منشدة السيرة النبوية في قرية صغيرة من قرى الدلتا إلى سيدة الغناء العربي التي تضـبط مؤشرات أجهزة الراديو في وقت واحد مـن الخلـيج إلـى المحيط لتنقل حفلتها ليلة الخميس من مطلع كل شـهر؟ هـل هي موهبة المرأة أم أن المرأة بموهبتها تمثلت حاجة عامـة وجسدتها وتوحدت بإيقاع لحظة في التاريخ، فصارت ملمحا

من ملامحها؟ وهل يمكن فصل المرأة عن المـد الناصـري وفرحة العرب وخيلائهم باكتشافهم أنهم أمة واحـدة؟ وهـل هناك أبلغ من أغنيات تلك المرأة في تجسيد ذلـك الازدواج المميز للبرجوازية العربية في تطلعها للاستقلال وهي علـى رأس حركة التحرر الوطني واستكانتها لدرجة النكوص إلـى الماضي وأنماطه؟ وهل عاطفية المصريين أمر عادي أم أنها سمة مميزة لهذا الشعب؟ هل أننا نحب أثر ونحزن أكثـر أم أننا فقط نفسح عما لا يفصح عنه الآخرون؟

ولم أكن أحب أم كلثوم بشكل خاص أو أهـتم بمتابعـة حفلاتها بل ويستفزني غناؤها العاطفي وما يكرسه من علاقة عثمانية بين الرجل والمرأة. وكانت عبارات « العزول » و « الجوى » و « الشجن » و « التقلب على جمر النـار » و « يا ظالمني » وغيرهما مما يكتظ به قاموس أغانيها خارج كل سياق مقبول للعلاقة بين الجنسين فـي نظـري. ولكـن والحق يقال إنني كنت أستجيب للمرأة وهـي تقـف هكـذا كمؤسسة وطنية يعلو صوتها الفذ بقصيدة « مصر تتحـدث عن نفسها » أو « وا زمان يا سلاحي » ويهتـز جزعهـا

ذلك الاهتزاز المباغت لامرأة مسكونة بما تغنـي، أسـتجيب كأنني نبتة عطشى وكأن صوتها ماء.

- ويا مريد لم يذيعوا حتى « مصر التي فـي خـاطري وفي دمي »!

- ولا حتى « مصر التي في خاطري وفي دمي »!

- إذن قرروا إنكار وجهها الوطني الأصـلي وتكـريس وجهها الآخر. إنهم منسقون تماما مع أنفسهم، أقصـد في اختيارهم للانحطاط!

ثم رحنا في الأيام التالية نرافق شوارع البلدة وأشـجار التلال، نتبعها إلى حيث تأخذنا، نركض في مساحات العشب الممتدة، نتسكع عند المنحنى، نجرجر الخطو فـي الطريـق الجبلية الصاعدة، يباغتنا الليلك الجبلي فـنجلس فـي ظلـه، نثرثر بلا انقطاع، نركـب أتوبيسـات الجامعـة الصـفراء والأتوبيسات العامة للبلدة إلى حيث تحملنا، ننزل في القـرى المحيطة والكليات المجاورة، ندخل مقاهيها الجديـدة علينـا، نحتسي القهوة فيها ونأكل وجباتها السريعة ثم نواصل فرحنا في الشوارع وفي آلة التصوير الصغيرة بحجم الكف، ونوقف عابرا «هل تسمح بتصويرنا معا؟» والرجل يفعل تأدبا وليس

عن طيب خاطر، وكطفلين خبيثين نتطلع باتجاه آلة التصوير في يده نضحك على نظرته الباردة المسـتخفة فـيظن أننـا نضحك للصورة.

ونجمع حاجياتنا، نودع برينس هاوس ومن فيه، وننتقـل إلى مسكننا الجديد بمركز البلدة. شقة صغيرة من حجـرتين بالدور الأخير فـي بيـت حجـري مـن ثلاثـة طوابـق. وكعصفورين أقاما عشهما بأعلى برج كنيسـة ذات سـقف خشبي مدبب أقمنا مريد وأنا تحت السقف الخشـبي المـدبب للبيت والذي ينخفض مائلا مـن الطـرفين حيـث المطـبخ والحمام فلا يستطيع الإنسان أن يقف منتصبا بـل عليـه أن يحني رأسه تحاشيا للاصطدام. ويسخر مريد منـي: « بـا عليك كم مرة ارتطم رأسك بالسقف اليوم؟ » وأتـوزع بـين رغبتي في الضحك وألم رأسي من أثر الخبطة. ومن النافذة العريضة الملاصقة للسرير نطل على مساحة مـن العشـب تحيط بكنيسة صغيرة وأنيقة لناقوسها الواحد دقة صافية تأتينا في النوم أحيانا كأنها جزء من حلم مبهم. ثم ينكسـر إطـار نظارة مريد الطبية فنسارع إلى أقرب محل للنظارات بالبلدة «آسفة» تقول المرأة السمينة وهي تعيد لنا النظارة: «لـيس

لدي إطار مناسب!» فنذهب إلى محل آخر، ونهـدأ بعـض الشيء حين يخبرنا الشاب الأشقر المتـأنق الواقـف خلـف العارضة الخشبية عن إمكانية تبديل الإطار المكسور بـآخر، ونجلس ننتظر على الكراسي الجلديـة الـوثيرة المجـاورة لحاملات الإطارات الدوارة حتى يأتينا صوت الشاب متعثرا:

- آسف جدا لقد شرخت إحدى الزجاجتين!

ويمد يده بالنظـارة ذات الإطـار الجديـد والزجـاج المصدوع.

- أطلب بالتلفون الآن زجاجـا بـدل الـذي كسـرته، سيرسلونه لي بالبريد، يمكنك استلامه بعد أربعة أيام!

ندفع ثمن الإطار الجديد ونخرج بالنظارة المكسورة إلى الشارع، مريد مغتاظ ومنزعج وأنا أتبعه في صمت. ونلتقي إحدى زميلاتي ببرينس، تعلق على مريد ضاحكة: «طريقـة ممتازة لمشاهدة أمريكا للمرة الأولى، أقصـد عبـر زجـاج نظارة مكسورة!» ثم نعود بعد أربعة أيام للشاب الذي يستقبلنا بابتسامة ظافرة، يناوله مريـد النظـارة، يسـتبدل الزجـاج المكسور بالجديد الذي أتاه بالبريد، نتبادل الابتسامات وكلمات الشكر ونغادر. «نستطيع الآن أن نذهب إلى نيويورك كمـا

كنا ننوي، انتهت المشكلة والجو دافئ ولطيف» أقول ملتفتـة لمريد. أتوقف محدقة في نظارته. كانت إحـدى زجاجتيهـا (الجديدة) تحولت إلى لون داكن في ضوء الشمس وبقيـت الأخرى على حالها بيضاء!

يخلع مريد نظارته ويحدق فيها ثم ينطلق كالسهم عائـدا إلى المحل، وأهرول وراءه.

يقول الشاب في صوت نحاسي هادئ:

- لقد كسرت زجاجا واحدا ولست مسئولا إلا عنه!

- ولكنك لو قلت لي أن هنـاك أي احتمـال لاخـتلاف الزجاج لطلبت زجاجتين جديدتين!

كيف يتبادر لذهنك أن يلبس إنسان، أي إنسـان نظـارة كهذه؟

كان مريد يتكلم بحدة وانفعال. أما الشاب فـراح يـدير قرص التلفون ويقول ببطء مترفع:

- لقد أخطأت في محاولة مساعدتك بتغيير الإطار، كـان يجب ألا ألمس هذه النظارة فصناعتها رديئة وزجاجها من نوع لم نعد نستخدمه في الولايات المتحدة! عد بعد أربعة أيام!

وحين استلمنا النظارة أخيرا بزجاجتيهـا المتشـابهتين واستدرنا متجهين إلى باب المحل كان الشاب يتحـدث إلـى نفسه بصوت خافت، فلما دفع مريد الباب رفع صوته قليلا:

- لو وضعت رجلك في هذا المكان ثانية فسوف أكسرها!

- ما الذي يقوله هذا الأبله؟

سألني مريد وقد خرجنا إلى الشارع، فأجبته ساخرة:

- قال إننا، ونظاراتنا سيئة الصنع، وربما أيضا أشكالنا، لا تليق بمحله الراقي!

- صحيح ما الذي قاله؟

سحبته من ذراعه مبتعدة عن المكان وأنا أقول ضاحكة: «الآن تستطيع مشاهدة أمريكا!».

١١

تحت مظلة واقية من المطر وقفنا في طقس غائم وبارد ننتظر وصول الأتوبيس الذي سوف يحملنا إلـى نيويـورك. جاء وركبنا، وبعد أربع ساعات وصـلنا المدينـة، ومـا إن غادرنا الأتوبيس حتى سألنا عن الطريق إلى الفنـدق الـذي سوف ننزل فيه، فعرفنا أن بالإمكان الذهاب إليه سيرا. مشينا في شارع عريض غير مزدحم نبحث عن تقـاطع الشـارع الرابع والثلاثين بشارع برودواي، بيد مريد حقيبـة جلديـة صغيرة بها ملابسنا وبيدي المظلة الواقية من المطـر وقـد أغلقتها بسبب شدة الهواء رغم الرذاذ الذي ظل يتساقط على رأسينا. وبدا لي أنها المرة الأولى التي أزور المدينـة فيهـا وإن لم يكن ذلك صحيحا.

- هل تذكر تلك القصة القصيرة لأحمد هاشـم الشـريف التي تدور عن موظف ريفي صغير يأتي إلى القـاهرة للمرة الأولى وبيده حقيبة تجسد خشيته بل ذعره مـن

فقدها كل مخاوفه من الضياع في المدينة الكبيرة؟ ثـم وأنا أضحك: احرص على الحقيبة التي في يدك!

فأجاب بجدية مدعاة:

- احذري من فقد المظلة!

انحرفنا يسارا فازدحم الشارع فجأة بالمارة والحوانيـت الصغيرة والكبيرة، ثم على بعد خطوات وجدنا فندقا. سـألنا، وكان الفندق هو بغيتنا، به طابق كامل تؤجر حجراته بـثمن مخفض للطلاب. صعدنا إلى الطابق العشرين حيث مكتـب الطلاب السياحي وأبرزت بطاقتي الجامعية « أجرة المبيـت عشرون دولارا بدون إفطار » دفعناهـا وأخـذنا المفتـاح واتجهنا إلى الغرفة.

قلت وأنا أغلق باب الحجرة وأبتسم:

- ها قد وصلنا إلى الفندق دون أن نفقد المظلة!

على الباب من الداخل علقت لائحـة مطبوعـة بخـط صغير تحمل عددا من التعليمات:

١- لا تترك باب الحجرة مفتوحا وأنت بهـا، بل اغلقه بالترباس من الداخل.

٢- حين تغادر حجرتك تأكد من أنك أغلقتهـا وأدرت المفتاح بالباب دورتين.

٣- تأكد حين تعيد مفتاحك إلى الاستقبال أن لا أحد يراقبك.

٤- لا تفتح باب حجرتك لطارق ما لم يخبرك موظف الاستقبال تلفونيا بأن ضيفا في الطريق إليك.

٥- سلّم كل ما تحرص عليـه مـن مـال أو مقتنيات ثمينة إلى قسـم الأمانـات بالفنـدق والإدارة غير مسئولة عما يتـرك منهـا فـي الحجرة.

٦- إذا هددك في الطريق شخص وطلب منك مالك فأعطه له بلا تردد حفاظا على حياتك.

تبادلنا النظرات وضحكنا ، ولكنني، حين دخل الحمـام، أغلقت ترباس الباب وعندما غادرنا الحجرة بعد أن اغتسـلنا وبدلنا ملابسنا أقفل هو الباب ثم أدار المفتاح فيه مرتين!

ركبنا المصعد إلى الدور الأرضي وسلمنا إلى الأمانات جوازي السفر وأعدنا المفتاح إلى الاستقبال ثم خرجنا لنأكـل ونتسكع في شوارع المدينة.

تناولنا وجبة سريعة من الهامبورغر والبطاطس المقلية وشربنا كوبين من القهوة ثم خرجنا إلى الشارع مرة أخرى، ننوي زيارة مبنى الامباير ستيت الذي لم يكن يبعد عن الفندق سوى بضع دقائق سيرا. قلت لمريد ونحن ننتظـر الإشـارة الخضراء لكي نعبر الطريق:

- لم أر هذا المبنى قبل ذلك، رغم إننـي زرت المدينـة ثلاث مرات. في زيارتي الأولـى زرت كمـا يليـق بمجنونة مثلي ثلاثة متاحف في يـوم واحـد. وفـي زيارتي الثانية تواريت المدينة خلف صاحبتي اللبنانيـة وحكاياتها الطويلة الموجعة عن صديقها الذي خلفته في بيروت وتقلباته العاطفية التي لا تنتهي. أما في المـرة الثالثة فقد رأيت شريحة من نخبتها اليسارية القديمـة. جئت بصحبة صديقتنا الأفـرو – أمريكيـة العجـوز وأقمت معها في بيت أحد أصدقائها وحضرت «حفـلا عائليا» صغيرا على شرفها. كـان كـل الحاضـرين

باستثنائي أبناء جيل واحد، تجـاوز السـتين أو علـى مشارفها، جمعتهم على ما فهمـت فتـرة الاضـطهاد المكارثي في مطلع الخمسينيات. قلت ونحن ندخل إلى مبنى الامباير ستيت ونقف في الصف الطويل لشـراء تذاكر للصعود إليها: « ولكن تلك حكاية طويلة، لا بد أن أحكي لك عنها بالتفصيل في وقت آخر! ».

ركبنا المصعد إلى حيث شرفة المشاهدة. لم تكن الساعة قد تجاوزت الخامسة عصرا، ولكن الجو كان غائمـا، فبـدا كأنه الغسق. خرجنا إلى الشرفة فلفح وجوهنا عواء عاصف وبارد راح يصفر عبر شعرنا وملابسنا. تحتنا على امتـداد البصر كانت نيويورك تقبع في الضباب يخفي تفاصـيلها ولا يخفي فتبدو بناياتها الشاهقة الكثيرة كـالفطر متنـاثرة فـي مجموعات هنا وهناك.

- لا أرى تمثال الحرية!

قال مريد أجلت البصر في المكان ثـم أخرجـت مـن حقيبتي خريطة المدينة أبحث عن مكان التمثال، ثـم رفعـت عيني وعدت أجول بهما في المدينة الممتـدة أسـفلنا، قلـت مشيرة بيدي إلى اللاشيء:

- أعتقد أنه في هذا الاتجاه.

- إنه غارق في الضباب على أي حال!

عدت أحدق في الخريطة بيدي ثم أشرت إلى مجموعة من البنايات المرتفعة:

- في هذا الاتجاه، وول ستريت، شارع التجارة والمال.

كانت سرعة الرياح تصطدم بنا كأنها سوف تفقدنا التوازن والهواء يصفر لاسعا في أذنينا. قلت لمريد ونحن ندخل إلى الشرفة الداخلية لكي نحتمي بدفء مكان مغلق:

- لا تبدو ناطحات السحاب من هذا العلو الشاهق مخيفة كما يبدو لمن يقف بالقرب من مداخلها. في بوسطون مجموعة من ناطحات السحاب الحديثة جدا بدت لي وأنا أنظر إليها عبر الشارع، أنها هياكل شاهقة منتصبة لا سمك لها، وإنها قد تسقط في أي وقت، وكلما رفعت عيني إلى واجهاتها التي تخلو من الشرفات ولا يظهر زجاج نوافذها الأسود أحدا من ساكنيها، شعرت بالخوف، الخوف الشديد.

- ربما كان علينا أن نأتي مرة أخرى في يوم مشـمس لعلنا نشاهد شيئا غير الأسمنت والضباب، هل تشربين كوبا من القهوة؟

دفعنا الباب الزجاجي المفضي إلى الشـارع المـزدحم بالمارة، تشابكت أيدينا ونحـن نـردد أبياتـا مـن قصـيدة «الأرض الخراب» للشاعر الأمريكي إليوت يقول مريد بيتـا فأعقبه بآخر ثم أكرر من القصيدة بيتا وقد عدلت فيه كلمة أو كلمتين:

-Unreal city under the brown fog of a winter dawn.

- I had not thought death had endone so many.

-Unreal city under the grey fog of a summer dusk.

!- Vienna, paris, London, unreal

أحاطني مريد بذراعيه وسرنا فـي الشـوارع نـأتنس بالزحام وضوء المصابيح ونحدق في المدينة الكبيـرة التـي نعرفها ولا نعرفها.

ارتدينا ملابسنا ونزلنا لنبحث عن مقهى نتناول إفطارنا فيه. خرجنا إلى الطريق الذي بدا بالمقارنة بالليلـة السـابقة

خاليا من المارة. نظرت إلى ساعتي، لم تكن تجاوزت الثامنة صباحا، وكنا يوم سبت. كان الطقس غائما وإن لم يكن فـي برودة الأمس. دخلنا إلى مقهى صغير بشارع جانبي وجلسنا على كرسيين مرتفعين بجوار العارضة الخشبية التـي يقـدم الأكل عليها والتي يقف وراءها النادل. طلب مريـد بيضـا مقليا وقهوة وطلبت مع القهوة شريحة مـن الخبـز بـالجبن وقطعة من الحلوى. لم يكن بالمقهى شريحة الخبـز بـالجبن وقطة من الحلوى. لم يكن بالمقهى من رواد إلا نحن ورجل عجوز جالس على مائدة جانبية يتناول إفطاره في صمت، ثم دخلت سيدة متقدمة في السن تلبس معطفا وجلست على إحدى الموائد الجانبية قريبا من مائدة الرجل، أخذت تنقل نظراتهـا بيننا وبين النادل تنتظر أن يأتيها بالإفطار.

- المسنون يشعرون أكثر بالبرودة. وهذه السيدة المسكينة تلبس معطفا في شهر يونيه.

- غريب خروجها لتناول الإفطار في مقهى في الصباح المبكر هكذا!

كانت المرأة قد بدأت تتبادل الحديث مع الرجـل عبـر المائدة الخالية بينهما.

- ربما تعيش وحدها وتشعر بالوحشة.

وضع النادل الإفطار الذي طلبناه أمامنا فأخذنا نأكل في صمت. وأنا أفكر في الرجل العجوز بقصة همنغواي الـذي يذهب كل ليلة إلى المقهى ويبقى جالسا به حتى يخلـو مـن الرواد وتحين ساعة إغلاقه. وأستعيد حـوار النـادلين عـن شخص أقـدم علـى الانتحـار «لمـاذا؟»، «لا شـيء!»، «لا شيء؟»، «لا شيء!» تتردد العبارة في القصة كنـاقوس حزين يؤكد هبوط ذلك اللاشيء الموحش على دنيا الرجـل فيتشبث بالمقهى «المكان النظيف جيد الإضاءة» يـدرأ فيـه شيئا من الخوف في نفسه. رفعت عيني عن كـوب القهـوة الذي أحتسبه. كان الرجل قد غادر تاركا وراءه على المائـدة مخلفات إفطاره، والمرأة جالسة في ترهل مثقل تحـدق فـي الفراغ وقد كشف معطفها المفتوح عن ما تحته من ملابـس، لم تكن قد خلعت قميص نومها بل أحاطته من عند وسـطها بحزام رفيع لرفعه قليلا كي لا يبين ذيله من تحت المعطف.

- هل تذهب إلى تمثال الحرية... أم نذهب إلى هارلم؟

دفعنا ثمن إفطارنا وغادرنا المقهى إلى الشـارع ولـم نقرر بعد إلى أين سنذهب. عدنا أدراجنا في اتجاه الفندق ثـم

تجاوزناه إلى تقاطع الشـارع الرابـع والثلاثـين بالشـارع الخامس وأنا ألقي على مريد قصيدة لانغستون هيـوز عـن هارلم:

ما الذي يحدث لحلم أجلوه؟
هل يجف
كزبيبة في الشمس،
أم تخرج به القروح فيتقيح؟
هل تفوح رائحته كاللحم العطن؟
أم يفرز قشرة
كمشروب سكري مركز؟
ربما يتدلى
كحمل ثقيل
أم أنه ينفجر؟

وننحرف إلى الشارع الخامس نسير باتجـاه الحوانيـت التجارية الكبيرة الأنيقة التي تعطي الشارع والمدينة شيئا من هويتهما. وهارلم القصيدة مكثفة ومجردة تستحضـر هـارلم الوقائع والتفاصيل التي عايشتها عبر دراستي. قطار ينبعـث دخانه ويسرع إلى المدينة التي تطل علـى الأطلسـي فـي

الشمال بامرأة ترفع يدها عاليا بشعلة للحرية. هـم يريـدون الحرية، نازحون من مدن الجنوب إليها، سود وفقراء يدخلون المدينة وبأيديهم صغارهم وحقائـب السـفر (مقفلـة علـى ملابسهم وبعض تذكارات الماضي وحلم). ولكـن يـورك الجديدة لا تحب اختلاط الألـوان – أليسـت ابنـة أوروبـا وصورتها في المرآة – نيويورك تختـار بياضـها العرقـي وتترك للسود هارلم، فتصبح عاصـمة لفقـرائهم ومهنيـيهم وفنانيهم وجنودهم العائدين من الحرب العالمية الأولى بأفكار عن تحرر الشعوب. والعشرينيات شاهدة، تكـتظ الشـوارع بالأهالي السود المهللين لمسيرات ماركوس غارفي يتقـدمها بلباسه المميز وقبعته المزركشة مناديا بالعودة إلـى إفريقيـا وبالقومية السوداء. وصحف ومجلات تتحدث عـن الحقـوق والتحرر الوطني، وقصائد تتغنى بالأسود الجميـل. حانـات كثيرة وعزف بيانو ناعم ينساب وغضبة ساكسافون وصوت واعظ متمرد. وخطباء يقفون على نواصي الشوارع يحدثون الناس عن الاشتراكية ومبادئ الصراع والثورة.

وتمر السنوات على هارلم فتطبعهـا بهويـة الفقـراء وعنصرهم العرقي. يصبح الغيتو الكبير عاصمة للمقهـورين

المعبئين بكراهية غريزية للشرطة والأثرياء وبحاجـة إلـى التحطيم، تحطيم أنفسهم، وبعضهم البعض مـرارة وغـلا، أو تحطيم قاهريهم في انفجارات جماعية في وجـه السـلطة البيضاء ممثلة فـي ممتلكاتهـا وقـوة قمعهـا البوليسـية.

«رضوى، هل ترين ذلك الموكب هنـاك، تعـالي تعـالي!» جرني مريد من يدي لكي نعبر الشارع في اتجاه موكب مـن الشباب حليقي الرءوس يلبسون سراويل بيضـاء ويغطـون جزءا من صدرهم كالمحرمين من حجاج المسلمين بقطعـة قماشية رقيقة لونها برتقالي فاتح، بعضهم كان يحمل طبـولا يدق عليها.

- هؤلاء هم أتباع كريشنا؟
- ويدعون للحب والسلام.
- يا سلام!
- ألا ترى كيف يبدو هؤلاء الشباب روحانيين ومتجردين عن هذه الدنيا وصراعاتها!
- كنا نتحدث عن هارلم، أراهنك أنهـم لا يسـتطيعون الاقتراب منها. إن لم يصـبهم شـيء، فعلـى الأقـل سينوبهم السخرية!

قلت وأنا أضحك:

- يا أيها الشاعر عليك بالتسامي، أليست لديك أجنحة؟!

لم نكن بعيدين عن متحف المتروبوليتان فعرضت علي مريد، رغم علمي بعدم حماسه لزيارة المتاحف، أن نـذهب. قلت له مشجعة إن فيه مجموعة مصرية كبيـرة ومجموعـة يونانية ومجموعات أخرى كبيرة نادرة.

- لقد زرته قبل ذلك، ما رأيك هل تذهب؟

قال مريد:

- ما رأيك أنت أن نقضي النهار في الشوارع؟ با عليك أيها أفضل: أن ترى مئات الصور والتماثيـل خـارج سياقها في ضوء النيون الباهت، وتنتقلي من قاعة إلـى قاعة ملاحقة برائحة الطلاء العالقة بالأرضية الخشبية اللامعة، أم نتعرف على المدينة من خلال التسكع فـي شوارعها؟

قضينا باقي النهار في الشارع الخـامس نحـدق فـي واجهات المحلات ووجوه الناس، نعلق على أسـعار السـلع وهيئة المارة. نسخر ونضحك، ونتفق ونختلف، نثرثـر ثـم نصمت، ثم نعود لثرثرة، ندخل مكتبة للسـؤال عـن كتـاب

ونخرج وقد اشترينا سواه، نقطع الشوارع في اتجاه ميـدان واشنطون وجرينتش فيلاج حتى كلت أقدامنا من طـول مـا مشينا وقرصنا الجوع.

- مريد، ألم تمل الهامبورغور؟
- حين أجوع يصبح المهم أن آكل!
- حين تطول بك الإقامة في الولايـات المتحـدة، فمـن المؤكد أنك سوف تكره الهامبورغر. فـي الأسـبوع الأول من وصولي لم تكن مطاعم الجامعة قد فتحـت فكنت أتناول الغـداء والعشـاء يوميـا فـي مقهـى «البلاووول» في الجامعة، هامبورغر سادة، هامبورغر بالجبن، هامبروغر بالبيض، ملك البورغور!
- حتى أصبح الهامبورغر يسيري في دمك!
- وكدت أخشى التسمم!
- هذا محل بيتزا، أنت تحبينها.

دفعنا الباب ودخلنا، فلفحتنا حرارة المكان. كان المحـل صغيرا به عارضة خشبية بحذاء الحائط وعدة كراس خشبية عالية بلا مسند لجلوس الرواد. وفـي مواجهتهـا عارضـة أخرى يقف خلفها رجل ربع، قمحي اللـون أسـود العينـين

والشعر، له شارب كثيف، التصق قميصه بصـدره المبلـل بالعرق. كان الشاب يعمل في سرعة وآلية، يـرق العجـين ويغطيه باللحم المفروم أو الفطر وشـرائح مـن الطمـاطم والجبن ثم يدخله إلى الفرن الذي وراءه. همست لمريد ونحن بانتظار دورنا:

- هذا الشاب عربي أو إيراني.
- كيف عرفت؟
- شكله!
- قد يكون إيطاليا.
- لا، بصدره سلسلة ذهبية بها آية الكرسي.
- ربما كان تركيا!

سألت الشاب بعد أن طلبت منه قطعتين من البيتزا:

- هل أنت عربي؟

رفع عينيه إلي ومشروع ابتسامة على شفتيه:

- نعم أنا فلسطيني، من القدس، وأنت؟
- أنا مصرية، وهذا زوجي فلسطيني.
- أهلين، أهلين!

قالها الشاب وقد توقفت يداه عن العمل وتحول المشروع إلى ابتسامة عريضة أكسبت وجهه المستدير المتورد بفعل وهج الفرن حماسا طفليا وطيبة.

- هل تدرسان هنا؟ إنني أعمل هنا منذ عدة شهور. كنت هنا في تشرين الماضي حين أتى أبو عمار وتحدث في الأمم المتحدة باسم فلسطين، كان ذلك عيدا، ولقد بكيت!

وبدأ الشاب يصنع البيتزا التي طلبناها منه. لم يكن بالمحل من عاملين سواه، وشخص آخر يجلس أمام حاسبة النقود، وكان عدد من الرواد يقفون في الصف وراءنا في انتظار دورهم. ولم يكن بإمكان الشاب أن يتحدث معنا أكثر فراح يعبر عن احتفائه من خلال البيتزا التي يصنعها لنا، ورحت أتابعه وهو يقتطع كرتين كبيرتين من العجين ويفردهما واحدة بعد الأخرى ويغطيهما بكمية تفوق المعتاد من اللحم المفروم والطماطم والجبن. نظرت إلى مريد، كانت عيناه على يدي الشاب وهما تصنعان الفطائر، وبقي صامتا ونحن نأكل البيتزا، وحين انتهينا قال لنا الشاب بحماس:

- عودا ثانية!

شكرته ورفع له مريد يده محييا وقال:

- دير بالك ع حالك يا خوي، دير بالك ع حالك!

حين وصلنا إلى ميدان واشنطون، كنا قد قطعنا مسـافة أخرى كبيرة سيرا، فجلسنا على أحد المقاعد بجوار مجموعة من الشباب هيبي الهيئة يعزف أحدهم على الغيتار ويرافقـه آخر على صفارة. سكنا إلى جلستنا الهادئة، ندخن ونسـتمع إلى عزف الشباب، ونتابع بعيوننا أسراب الحمام التي تتجمع في بقعة من العشب ثم تطير فجأة كلما تجمعت تاركة وراءها واحدة تسير ببطء وتحرك رقبتها تلك الحركة المميزة لطيـر الحمام.

- ومن يأتي لنا بكوب قهوة؟

غادرنا أماكننا وسرنا باتجاه الشارع. كان بالحديقـة – الميدان مساحات ممتدة من العشب الأخضر يحط عليه الحمام ثم يطير فتتبعه عيون الرجال والنساء المسـنين المتنـاثرين على الأرائك الخشبية. وعلى أرائك وحدهم جلـس بعـض السكارى، مالوا برءوسهم المتغضنة القديمة على صـدورهم مخلدين لسكون كأنه النوم. واحد منهم يحدق فـي اللاشـيء أمامه وقد استغرق في حديث مع الهواء ونفسه ومن يقتـرب

من المارة منه، وبجواره كيس من الورق البني خبأ فيه علبة البيرة أو زجاجة الخمر التي راح يقطع حديثه للشرب منها. وهنا وهناك تجمع شباب هيبيو الهيئة يعزفون أو يدخنون أو يتبادلون النكات. لمحنا جمهرة من النـاس ببيـنهم أطفـال كثيرون، اقتربنا، كان الأطفال يضـحكون والكبـار أيضـا. زججنا بأنفسنا بينهم حتى نتمكن من المشاهدة. كان الناس قد أفسحوا المكان لفتى نحيل، أشقر، حليق الشعر، يلبس قميصا وبنطالا وحذاء أسود، يقوم بعرض تمثيلي صامت. يحـاول فتح نافذة زجاجية يتقوس ظهره قليلا، يهبط كتفاه، تحتـبس أنفاسه، ويمتد ذراعاه، وتدفع يداه المفتوحتـان كمـروحتين بالزجاج الوهم إلى أعلى. ويزداد تقوس ظهـره، وتـتقلص عضلات وجهه وهو يرفع بكل طاقتـه الزجـاج اللاشـيء. يدفع، ثم يقفز للخلف فجأة متحاشيا سقوط الزجاج اللاشـيء. يدفع، يدفع، ثم يقفز للخلف فجأة متحاشيا سقوط الزجاج على أصابع يديه النحيلتين. يصفق له الناس فينحني لهم بابتسـامة ثم يبدأ في مشهد جديد.

وعلى بعد خطوات من عرض التمثيل الصامت، عنـد مدخل الحديقة كان شاب أسمر من جزر الهند الغربية علـى

الأرجح يقف في لباس مزركش زاهي الألوان أمام برميلين كبيرين ويشرح للمارة بعض تفاصيل فنه.

- قالوا هذه البراميل القديمة للقمامة، فقلنا بل لمتعة الناس. انظروا يا أخوتي، هذان البرميلان من الصفيح هما آلة موسيقية بسيطة، هكذا تبدو، ولكن بها إمكانيات عظيمة... اسمعوا هكذا!

وأخذ الشاب يضرب عصيه على أجزاء مختلفة من البرميلين محدثا صوتا مختلفا في كل مرة

- إنني فقط أريكم كيف. ولكني الآن سأسمعكم الموسيقى الحقيقية.

وبدأ الشاب ذو الوجه الأسود المستدير والعينين اللامعتين يضرب بسرعة واقتدار على طبلتيه محدثا أصواتا تتناغم وتتنافر داخل نسق لحني جميل، وراح جسده يميل يمنه ويسرة يجاوب الصوت وكأنه هو نفسه ثالث الطبلتين يشاركهما وحدة عضوية لا تحل، وكأن وجهه الأسود المتصبب عرقا يفيض قوة وعذوبة.

- والقهوة؟

- الأفضل أن نركب الأتوبيس إلى الفندق ونتناول قهوتنا في مكان قريب من هنا.

كانت الشمس قد مالت للغروب والغسق وشـيك، وكنـا نريد أن نأكل شيئا ونتناول القهوة ونعود إلى حجرتنا بالفندق قبل أن يهبط الليل علينا، غريبين في المدينة التي نعرفها ولا نعرفها.

- ما الذي يحدث هذه الليلة؟

تساءلت بصوت مسموع معلقة علـى الصـفير الحـاد المتصل لسيارات الشرطة التي بدا وكأنها خرجت بالمئـات مرة واحدة إلى وسط المدينة تقطعها جيئة وذهابا.

- ربما كان ذلك يحدث كل ليلة، قال مريد، ولم نلحظـه بالأمس لأننا نمنا مبكرا.

لم يكن بالحجرة شرفة نطل منها على الطريق بل طاقة مربعة بأعلى الجدران نرى عبر فتحتهـا بعـض أضـواء ناطحات السحاب. لم يكن بإمكاننا رؤية الكشافات الفوسفورية الزرقاء لسيارات النجدة وهي تواكب في حركتهـا الدائريـة النابضة والصفير المتقطع.

جلسنا أمام التلفزيون، مريد متكئ بظهره على السـرير وأنا على مقعد مقابل، ننظر إلى ما يدور على الشاشـة ولا نتابعه. نبدأ حوارا في موضوع ثم لا نوفيه. وبدا أن انشغالنا بذلك الذي يدور من حولنا أمر لا مهرب منه. باب الحجـرة مغلق بالترباس، والمفتاح تعلوه لافتة من التعليمات الأمنيـة، كنا نعي ذلك ونعي أننا في غرفة بالدور العشرين بفندق فـي قلب منهاتن. ننصت لأصوات سيارات النجدة كأننا مسجونان راحا يصيخان السمع، أداتهما الوحيدة لعقـد صـلة بالعـالم الخارجي حولهما.

- خمّن ما الذي حدث الآن؟
- عثروا على شخص قتيل!
- أو معركة بالزجاجات وقعت في حانة!
- أو سيارة سرقت!
- هذا ما يحدث في كل مكان!
- خمن مرة أخرى؟
- سيدة ثرية اكتشفت سرقة عقدها الماسي!
- سرقت متحف!
- أو بنك!

- أو بيت!
- هذا يحدث في كل مكان!

استهوتنا اللعبة.

- شباب سود اقتحموا متجرا وحطموا كل ما فيه!
- امرأة بورتوريكية فقيرة قتلت نفسها!
- أبلغ الجيران عن رائحة كريهة تنبعث من مسكن جارهم العجوز الذي لم يره أحد منذ أيام!
- شرطي أطلق الرصاص على شاب أسود!
- فتاة اعتدي عليها جنسيا ثم ضربت حتى الموت!
- عشرة شباب سكروا ثم قاموا بانتحار جماعي!
- هذه لعبة كئيبة، سأقوم لأتحمم!
- هل نذهب إلى تمثال الحرية؟
- سنذهب إلى « الغرنيكا ».

دفعنا الباب الزجاجي للفندق المفضي إلى الطريق وسرنا باتجاه تقطاع الشارع الرابع والثلاثين بالشارع الخامس، ثم انحرفنا يسارا قاصدين متحف الفن الحديث. «بدأت تمطر!» تطلعت إلى أعلى، السماء ملبدة بغيوم رصاصية. فتح مريد المظلة، وأمسكها بيده اليسرى، وسرت

أنا بجواره متعلقة بكلتا يدي بذراعه اليمنى، أثرثر بلا انقطاع عن زياراتي السابقة للمتحف.

عند باب المتحف نفضنا المظلة من الماء العالق بها ثـم طويناها ودخلنا. مال على مريد وقال بصوت هامس: «قبل أن نصعد إلى أعلى لكي ترى «الغرنيكا»، أريد أن أطلعـك على سر صغير!» دلفنا من باب يسارنا إلى قاعة للعـرض. كانت اللوحة الصغيرة التي بحجم كُراسٍ مدرسي في مكانهـا على الجدار بين عدد من اللوحات الصغيرة الأخرى.

- أردتك أن ترى هذه اللوحة.

وقفنا معا نتأمل لوحة «المينوتور» لبيكاسو التي رسمها كغلاف لمجلة فنية عام ١٩٣٣. عاودني الشعور، كمـا فـي المرتين السابقتين، بأن تلـك النظـرة فـي عينـي الثـور الأسطوري تهمس إلي بكلام كثير عـن الوداعـة والبـراءة وشيء من حزن أو انكسار وربما أشياء أخرى عن مخلوقات ومساحات من الإحساس أفلتت في الهمس من أذني المصغية.

- هذا المينوتور المسكين في الأسطورة، هو الذي يحمل الأرض على رأسه!

- إنني أتعاطف معه كأنه أنا!

- لماذا أسميت اللوحة سرا؟

- لا أدري!

وصعدنا لمشاهدة «الغرنيكا». دخلنا من بـاب القاعـة، كانت في مكانها تغطي الجدار المواجه بالكامل، لوحة بألوان الصور الفوتوغرافية في الصحف اليومية، أسـود ورمـادي وأبيض، في أقصى اليمين شخص يرفع يديه ورأسـه إلـى أعلى مستنجدا بطاقة مربعة من الضوء ولا يصل. وامـرأة تطل من نافذة بأعلى يمين اللوحة برأس مندفع ويـد تقـبض بعزم نبية على مصباح صغير، مضاء بفتيـل، والمصـباح يلامس آخر أكبر يمزج بـين أشـكال المصـباح الكهربـي والشمس والعين. ومن الزاوية اليمنى بأسفل اللوحة تـركض امرأة باتجاه الحدث بمركزها، مذعورة مشرئبة العنق تتطلع، رعبها صار تشنجا في أصابع اليـدين والقـدمين وحلمتـي الثديين. ومركز اللوحة حصان يصهل ساعة يهوي تنكسـر قوادمه، والفارس القتيل مقطع الأوصال تحته. رأس ويـدان. في الرأس عينان مفتوحتان وفم فاغر يحتج ويصرخ، أم أنه يسأل لماذا؟ ويد مفتوحة يجاوب تصـلبها المتشـنج أيـادي المشرئب للنافذة والمرأة الراكضة وثكلى تحمل ابنها القتيـل.

ويد الفارس الأخرى تقبض على خنجره المكسور وزهـرة. وبأعلى يسار اللوحة طائر يشرئب للضوء، هل هـو ذبـيح؟ ورأس ذلك الثور المهيمن شاهدا وساكنا وباقيا كتراب الوطن أو كالتجدد في الوجود.

- ربما سميت تلك اللوحة الصغيرة سرا لأنني كنت أفكر فيها في ضوء «الغرنيكا».

- «المنيوتور» تسر لك، أم هذه فهي البيان بعينه، إنهـا بيان المذبحة!

ثم رحنا نشاهد مجموعة السكتشات التي بدأها بيكاسـو بعد أيام من معرفته بخبر قصف القرية (*).

(*) في ٢٧ أبريل ١٩٣٧ قصفت الطائرات النارية - إسـهاما في مساعدة قوات فرانكو الفاشية - قرية غرنيكا بإقليم الباسك بأسبانيا، واستمر القصف ثلاث ساعات، وبلغ عدد الضحايا ٦٥٤ قتيلا و ٨٨٤ جريحا، في مايو رسم بيكاسو ٦ سكيتشان حول الموضوع ثم تابع فـي الأيام التالية رسم سكيتشات أخرى، وفي ١٠ مايو بدأ في رسم اللوحة ، وفي يونيه كان قد أنجزها. نقلت اللوحة من باريس إلى نيويورك حيث بقيت معروضة في متحف الفن الحديث حتى نقلت في أكتـوبر ١٩٨١ إلى متحف البرادو بمدريد .

- هذه المرأة العاصفة المطلة بمصباحها علــى المشــهد كانت بذهن بيكاسو منذ تصوره الأول عن اللوحة، إنها موجودة منذ السكيتش الأول.

- وكذلك الحصان.

- و«إن من البيان لسحرا».

- وغضب الفنان وحده لا يأتي بذلك البيان الســاحر! لا بد أن تتوفر لديه قدرة فذة علــى صــنع تكــوين دال ومقتصد ومتناسق إلى حد الصرامة الهندسية!

كان المطر ينهمر غزيرا على السقف الزجاجي للقاعة، محدثا صوتا راح يعلو ويتصاعد، فارضا نفسه على المكــان وعلينا. قلت لمريد إن في المتحف صورا أخــرى لبيكاســو ومجموعة جميلــة لموديليــاني، ولوحــة يجــب ألا تفوتــه لسيكييروس، وأخرى اسمها « الزاباتســتاس » لفنــان مــن أمريكا اللاتينية نسيت اسمه. ولكني كنت أتوقع، كما حــدث يوم شاهدت «الغرنيكا» للمرة الأولى، أنه يفضــل ألا يــرى شيئا آخر على الأقل بعدها مباشرة.

- ما رأيك في تناول كوب من القهوة؟

نزلنا الدرج إلى الدور الأول بحثا عن المقهى المشـار إليه في دليل المتحف. مررنا بباب زجاجي كبير يفضي إلى حديقة بها بعض التماثيل، كان المطر ينهمر بغزارة، ولم يكن في الحديقة أحد. وجدنا سهما يشير إلى باب المقهى. دفعنـا الباب الزجاجي ودخلنا. كان المقهى دافئا وصـغيرا وأنيقـا. جلسنا نأكل في صمت.

- فيم تفكر؟

- في مذابحنا التي لم يرسمها أحد بعد!

كنت أرشف قهوتي وأدخن وأنا جالسـة فـي مواجهـة مريد، أفكر في أن « الغرنيكا » هي أشهر لوحة سياسية في هذا القرن، وأتساءل عن الذي يجعل الفن فنا، وعـن الـذي يجعله هكذا مختلفا ومتميزا عن كل شيء سواه. ثـم أحـدق بخيبة أمل إلى الكوب الذي أصبح فارغا.

- هل تشرب قهوة أخرى؟

وأحمل كوبين آخرين من القهوة يتصاعد البخار منهمـا نرشفهما في هدوء ثم نمضي لاستكمال جولتنا، نمر بالبـاب الزجاجي للحديقة، توقف المطر.

- هل تخرج؟

خضرة الحديقة مغللة بشيء من بخار. العشب مبلل وأوراق الشجر مثقلة بحبات المطر البلّورية. نخطو في الحديقة كأننا جديدان على أرض جديدة، تماثيل من البرونز تلتمع بالبلل. تمثال كبير لبالزاك من صنع رودان وعنزة من الحديد المطروق لبيكاسو، وحدة نحتية اسمها الأسرة لهنري مور، امرأة عارية مضطجعة فوق مجرى مائي صغيرة تحيط بها خضرة النباتات. طقس غائم كأنه الغسق والتماثيل تفصح عن حضورها في الصمت المطبق الذي يلف الحديقة، وشيء من خوف يتسرب إلى نفسي. هل هذه التماثيل جماد أم أنها كتلك التي شاهدها الأمير موسى بمدينة النحاس في ألف ليلة وليلة، حياة تجمدت لوقت عابر؟

هذا المكان المسكون بالتماثيل والأخضر والمطر هل يخيفني أم أن شيئا فيه مكثف وفذ كلحظة الإخصاب تغلب روحي وتبعث الدمع من عيني؟ «وما الذي يجعل الفن فنا يا مريد؟» ولا أنتظر إجابة وأمسك بيده وندير ظهرنا للحديقة دالفين من الباب الزجاجي إلى داخل المبنى.

وبعد ساعات من المشاهدة في قاعات المتحف نغادر حاملين مظلتنا، سائرين في الشارع الذي لم يعد مبللا، ويبدو

ونحن نرى الطريق المزدحمة بالرائحين والغادين والسيارات الخاصة والأتوبيسات أننا قد وصلنا لتونا من سفر وأن علـى عيوننا أن تعاود التآلف مع ذلك الضوء المختلف. ثم نعـود نعلّق ساخرين على جناح الفن الحديث جدا، آخر ما شاهدناه بالمتحف. نشارة خشب وإطار سيارة قديم في زاويـة، هـذا تكوين فني، قاعدة خشبية لمرحاض يحيط بها شـباك، هـذا تكوين آخر. ويضحك مريد قائلا: « يبدو أننا قد أصبحا مـن المحافظين! » ثم يسارع إلى فتح المظلة اتقاء للمطر الـذي عاد ينهمر فوق رأسينا.

دفعنا حساب الفندق وحملنا حقيبتينا الصغيرتين والمظلة وخرجنا إلى الشارع. في الوقت متسع، سـنذهب لمشـاهدة العرض البورتوريك، وبعدها نتجه إلى محطـة الأتوبيسـات المركزية نتناول الغداء في أحد مقاهيها، ثم نركب الأتـوبيس الذي يغادر إلى أمهرست في تمام الثالثة. سرنا باتجاه تقاطع الشارع الرابع والثلاثين والشارع الخامس ثم انعطفنا يسـارا قاصدين المنطقة التي سيجري بها العرض.

أتتنا، قبل أن نصل، دقات الطبول، وكلما اقتربنـا مـن المكان علا صوت القرع مصحوبا بذلك الصـخب المميـز

لتجهر الناس في عيد شعبي. ثم بدأنا نشق طريقنا وسط آلاف الأهالي المحتشدين على جانبي الطريـق، نحـاول أن نجـد موطئ قدم يمكننا من المشاهدة. كان من الواضح أن المرور العادي قد حول لأجل موكب السيارات والعربات المشـاركة في العرض والتي راحت تمر من أمامنا مغطـاة بـالحرير اللامع ذي الألوان البراقة، والأعلام المرفوعـة، واللافتـات الكبيرة المزينـة التـي تحمـل أسـماء الهيئـات الشـعبية البورتوريكية. يعتلي العربات حسان سمراوات فـي أثـواب تكشف عن العنق والذراعين وتضيق عند الخصر وتنطلـق فضفاضة تغطي الساقين، أو في أرديـة تتـرك الـذراعين والفخذين عارية كملابس البحر تحمّلها أوشحة زاهية اللون. ثم تمر وحدات من الأطفال والشباب والفتيات في صـفوف متراصة منتظمة تتلوها وحدات من العاملين في شتى مناحي النشاط الذي يسهم فيـه البورتوريكيـون. ويدهشـنا طـول الموكب وضخامته، ويدهشنا أكثر حشد الأهالي على جـانبي الطريق. آلاف من الرجال والنسـاء والأطفـال، عشـرات الآلاف، غابت دكنة الأسفلت تحت نسيجهم البشري الزاهي، الوجوه الحنطية، ألوان الملابس المتعددة، البالونات الحمـراء

والزرقاء والخضراء والبنفسجية، وآلاف الأعلام الصـغيرة ذات المثلث الأزرق والخطوط البيضاء والحمراء مصـنوعة من الورق ومثبتة بأعواد خشبية دقيقة فـي أيـدي الكبـار والصغار. وبائعو المثلجات والنقانق نصبوا موادهم الخشـبية في الخلفيات، والشباب الوطنيون ألصـقوا علـى قمصـانهم وبناطيلهم شعارات تقول: «أنا فخـور لأننـي بورتـويكي» أو «قبّلني فأنا بورتوريكي»، وفتيات سـمراوات ممتلئـات الأرداف علقن أقراطا معدنية تحمـل رسـم العلـم. كانـت بورتوريكو التي تقطن نيويورك قد خرجت عن بكرة أبيهـا إلى الشارع لتشاهد في المرآة نفسها فتتبدد بعـض مخاوفهـا أمام وجودها الجماعي المميز.

يقترب منا شاب نحيل ويعرض علينا إحـدى الجرائـد الراديكالية لنشتريها فـأقول لـه مبتسـمة: «إننـا لا نقـرأ الإسبانية!» فيتحول عنا في غضب ظنا أننا نسخر منه، فهـو لا يتوقع إلا أن نكون بورتوريكيين. أصـيح عليـه: كومبـا نيرو: إننا عرب! » ولا أعرف إن كان قد سمعني، ويضـيع وسط الزحام.

- الجزيرة الفريسة انقض عليها النسر الأمريكـي عـام ١٨٩٨ وها هو ما زال ينهش! لم أكـن أتصـور أن بنيويورك هذا العدد الضخم من البورتوريكيين!

- ثلاث سكان الجزيرة مهاجرون إلى الولايات المتحـدة ويعلمون أساسا في نيويورك، وشيكاغو، ويواجهـون شتى المشاكل المرتبطة بالفقر والبطالة وعدم معرفـة اللغة وعدم القدرة على التكيف الاجتماعي والثقـافي، إنهم يعيشون في قاع السلم الطبقي والعنصري، وهـذا يزيد طبعا من حسهم الوطني كبورتـوريكيين. ومـع ذلك، قال لي صديق منذ فترة، إنه لو أجرى اسـتفتاء الآن للاختيار بين استقلال الجزيـرة عـن الولايـات المتحدة وانضمامها النهائي لها كولايـة جديـدة مـن ولاياتها، فإن هناك احتمالات كبيرا أن تـأتي نتيجـة الاستفتاء في صف الانضمام... هل تصدق! واضح أن الولايات المتحدة بسياساتها الاقتصادية في الجزيرة قد جعلت البورتوريكيين يشـعرون أن حرمـانهم مـن وضعهم كرعايا للولايات المتحدة - وهو الوضع الذي يسمح لهم بالهجرة إليها بحثا عـن عمـل - سـوف

يضعهم في مأزق. لقد عرتهم إلى الحد الـذي صـار عليهم أن يفكروا مرتين إن لم يكن من الأفضل لهم أن يحتموا بالمظلـة الإمبرياليـة. وتعمـل المجموعـات الراديكالية والمنظمات الحزبية على توعيـة الأهـالي بخطورة موقف كهذا، وبأن هذه المظلـة الإمبرياليـة ليست سوى جناحي النسر الذي ينهش!

- علينا الآن أن نتوجه إلـى المحطـة لكـي لا يفوتنـا الأتوبيس.

قلت لمريد مداعبة:

- لا يصح أن تأتي إلى نيويورك وتغادرها ولا تـزور تمثال الحرية أو تشتري نموذجا مصغرا منه أو ترسل لأصدقائك بطاقة تحمل صورته!

- سوف نطلب من هذه الأسرة علما لبورتوريكو!

١٢

قال أستاذي مداعبا حين ذهبت إليه لأستمع إلى رأيه في رسالتي:

- لماذا لم تكتبي الرسالة بذلك التمكن الذي ترجمت بـه قصيدة مريد «سعيد القروي»؟

- إذن أعجبتك القصيدة؟

- أعجبتني جدا، إنها ويتمانية!

ضحكت زوجته:

- لا أحد عنده يرقى إلى مرتبة ويتمان!

- أفهم من ذلك أن الرسالة لم تعجبك؟

- لم أقل ذلك! وضحك.

كان الأستاذ يجلس كما اعتاد في الآونة الأخيرة علـى الأريكة الملاصقة للنافذة التـي تغمـر الحجـرة بالضـوء، وبجواره مائدة صغيرة صفت عليها بعض أوراقـه وكتبـه، ومشاية معدنية صار يستعين بها في الحركة منذ زلت قدمـه قبل شهر وأصيب بكسر في أعلى الساق. جلست بجواره لكي

أستمع إلى ملحوظاته التفصيلية في البحث. وحين انتهينا قال مبتسما:

- باستطاعتنا الآن أن نحدد موعد الامتحان، ما رأيك في ٦/٣٠؟ إذا كان الموعد مناسبا لك وللممتحنين الآخرين فسـوف أعلـم إدارة الجامعـة بكتـاب رسـمي. ويا عزيزتي ستنفردين بالامتحان فـي هـذه الشـرفة الجميلة المطلة على الغابة هنا في هذا البيت!

لم تكن التعديلات المقترحة من قبل المشـرف لتتطلـب جهدا كبيرا، ساعة أو ساعتين أقضيهما بين حين وآخر فـي المكتبة بحثا عن معلومة محددة، أو في البيت أعيد صـياغة فقرة تفتقد الدقة أو جملة مبهمة. ولكني كنت قد انتهيت مـن البحث وانفلت من دائرة جاذبيته التي استمرت طوال عملـي فيه، وعادت تساؤلاتي بخصوصه من ذلك النوع الذي يشغل نجارا يحمل صناعته الجديدة لكي يعرضها على الآخـرين، تساؤلات تختلف عن تلك التي شـغلته وهـو يعمـل بـين الأخشاب والمسامير وسطل الغراء وعدة النجارة.

وكنا نسكن ذلك البيت الصغير نفسه الذي تحدث ألـواح سلمه الخشبي صوتا في صعودنا ونزولنا، والذي كان علينـا

أن نتجنب باستمرار من اصطدام رأسينا بسقفه المائل عنـد طرفي الحمام والمطبخ. كنا فرحين لوجودنا معا، أنا ومريد، ولممارستنا تلك التفاصيل الصغيرة التي تؤكد هـذا الوجـود المشترك. نذهب لشراء لوازمنـا اليوميـة، نحمـل أكيـاس ملابسنا المتسخة إلى المغسلة، ننظف البيت، نطهو الطعـام، نتسكع أمام واجهات المحال، ندخل مقهـى، نجلـس علـى العشب، نتابع من النافذة العريضة لحجـرة نومنـا هطـول الأمطار على الأسفلت وضوء السيارات ومصابيح الشـارع، نخرج إلى الطريق نتابع رائحة العشب المبتل بعـد توقـف المطر، يأخذنا سحر عازف أسمر وهو يـنفخ فـي نفيـره النحاسي في اقتدار شامخ كأنه رسول جديد، يأتينـا مايكـل بالطفلين، أو يدعونا إلى بيته، يفاجئ ابن زوجته بأنه اصطاد له ثعبانا، ويفاجئ صديقتي العجوز بحضوره القسـم حـافي القدمين ولا يلبس إلا الشورت. ندعو أصـدقاءنا الأفـرو – أمريكيين إلى بيتنا ، ونذهب إليهم في بيوتهم ونـدخل فـي سياقهم كأننا منهم.

في انتظار الامتحان اتسـمت حياتنـا اليوميـة بتلـك الاعتيادية الأليفة التي تؤكد بعـض الأحـداث المفاجئـة أو المختلفة، إنها اعتيادية وأليفة.

- جاءنا طرد!

قال مريد وهو يدفع الباب ويدخل علبة كرتونية صغيرة عليها طوابع وأختام بريدية. وكطفلين صـغيرين يسـتطيل عنقاهما المشرئبان استباقا للمفاجأة في حب استطلاع ونفـاد صبر، نفك الخيط ونفتح العلبة.

- مانجو... وزهرة!

أربعة أنواع مختلفة من ثمار المانجو وزهرة الغاردينيا أرسلتها لنا آنا من بورتوريكو. في فيلم كوبي شـاهدته قبـل شهور برفقتها يسأل شـاب فتـاة « مـا اسـمك؟ » تقـول «لوسي» فيقول: «لا، بل غاردينيا!» وما الغاردينيا يا آنـا؟ تصفها لي، وهاهي ترسل بواحدة، زهـرة بيضـاء، نفـاذة الرائحة أحاطت عرقها بقطعة قماشية مبللة حتى تصل إلينـا قبل أن تذبل، ولم تكن الزهرة قد ذبلت تماما.

وتحدثني راشنا صديقتي الهندية بـالتلفون وتقتـرح أن نرافقها وصديقها راجيندر في رحلة بالسيارة إلى كندا لخمسة أيام. أتحمس للفكرة يقلق مريد للأمر.

- الامتحان؟

- إنه يوم ٦/٣٠ سنعود قبل ذلك بأربعة أو خمسة أيـام! تحملنا سيارة راجندر الفـولكس فـاغن القديمـة ذات صباح مشمس شمالا باتجاه مقاطعة أونتـاريو بكنـدا. يجلس راجندر خلف عجلة القيادة، أنيقا كعادته، يلـف رأسه بتلك العمامة الواجب لبسها على السيخ ويحـيط معصمه بأسواره من فضة، وبجواره تجلـس راشـنا تنظر من حين لآخر في خريطة معهـا لتدلـه علـى الطريق، وأنا ومريد في المقعد الخلفي. ينتصف النهار ونتوقف لنأكل بعض ما حملنـاه مـن ساندويتشـات. تتعطل السيارة فندخل قرية في الطريـق لإصـلاحها. تغيب الشمس ولم نصل تورنتو بعد، ثم يهبط الليـل. ونتوقف على مشارف المدينة لنأكـل مـرة أخـرى ولتتصل راشنا بصديقة لها دعتهـا للإقامـة ببيتهـا. سنوصل راشنا أولا ثم نبحث لنا عن فنـدق، ولكننـا

نضيع في المدينة الكبيرة، نسأل ثم نعود نفقد طريقنـا بين سكك جبلية تحت أمطار لا تنقطع. وأخيرا نصـل وقد جاوزت الساعة الواحدة بعـد منتصـف الليـل. فتدعونا صاحبة البيت لقضاء الليلـة عنـدها «تـأخر الوقت بكم، ونحن بعيدون عن مركز المدينة، ستقضي راشنا الليلة معي في البيت، وبالحديقة كوخ به مكـان لثلاثتكم». كوخ خشبي صغير تحـت الأمطـار فـي الغابة، مشهد من قصيدة، غير أنني في المشهد منهكة ولا أستطيع النوم. هل هو اختلاف المكان أم خـوف تسببه قرقعات الرعد وصوت انهمار المطر على سقف الكوخ الذي يبدو كأنه سوف ينهار فوق رءوسنا؟ ولكن الغابة في الصبح، بعد ليلة من الأمطار، تتألق كعاشقة قامت لتوها من فراش الحب. بهية هـي الغابـة بعـد المطر، مثقل أخضرها بالبلل، تلتمـع دكنـة جـذوع أشجارها العتيقة كأنها ليست عتيقـة ويهمـس طينهـا الرطب القديم بأشياء مبهمة عن خصب وبذور خليقة. نتجول في المكان في انتظار أن ينتهي صاحبنا الهندي من لف عمامته وترتيب شاربه المبروم من طرفيه إلى

أعلى قليلا حسب تقاليـد السـيخ، ونشـرب قهوتنـا الصباحية شاكرين صاحبة البيت. ونؤمن مبيتنا لليالي الثلاث التالية في فندق.

نشاهد المدينة. نزور متحف فنونها ومركز العلوم بهـا وبرلمان الولاية، نتسكع في شوارعها التجارية، نندهش دهشة الريفيين أمام واجهات محلات الجنس الكثيرة، نتوغـل فـي الشوارع الخلفية حيث تغلب الأقليات العرقية مـن أصـول هندية وصينية وإفريقية، نلتقي ببعض معارف راجندر مـن السيخ الذين خلعوا العمامة والأساور الفضية وحلقوا اللحيـة والشارب ليدخلوا في السياق وبقوا خارجه. ونختتم زيارتنـا بقضاء ليلة في «محل أونتاريو» الذي يضم مـن الملاهـي أنواعا شتى. وفي الصباح نغادر المدينة كسياح طيبين قضوا وقتا طيبا، وظلت معرفتهم بالمكان سطحية وعابرة.

وفي طريق العودة نتوقف لمشاهدة شـلالات نياغـارا وقضاء بعض ساعات في المكان. نهبط إلى بـاطن الأرض في مصعد، ندخل حجرة فسيحة، نستبدل أحذيتنا فيها بأحذية من مطاط، ونلبس معاطف واقية من البلل لها أغطية للرأس، ثم ندلف إلى أنفاق تقودنا إلى شـرفة نـرى فيهـا انـدفاع

الشلالات من فوق رءوسنا. يملأ الأنفاق هدير المياه المندفعة كما ضجيج دوران المخارط والأفران والآلات في مصنع هائل. يصم الصوت آذاننا؛ فنصرخ لكي نسمع بعضنا. يبلل رذاذ الماء وجوهنا فنضحك كأطفال موزعين بين فرحة المغامرة والخوف.

نصعد لنسير بمحاذاة السور الحجري للنهر، نشهد من على الشلالات المندفعة. ويلتقط لي مريد صورة، سوف أظهر فيها جالسة على السور ومن خلفي الشلالات، بملابسي الزرقاء وشعري المربوط خلف أذني بشريط أسود دقيق، سوف يظهر حتى حذائي البني الصغير الذي لا يلمس الأرض. ولكن لا شيء مما يضطرم في المكان أو في نفسي سوف يظهر!

ثم نعود إلى السيارة «الفولكس» القديمة التي ألفناها كما يألف المسافر الوحيد حماره، نولي وجهنا جنوبا. يهبط الظلام علينا في تلك العلبة الصغيرة التي تضم أربعتنا وتقطع بنا الطريق. يتبادل مريد وراجندر القيادة، وأنا وراشنا الذكريات في المقعد الخلفي بصوت خافت كالهمس. تحكي راشنا عن أبيها وأمها اللذين ماتا، وعن تقاليد ديانتها الزرادشتية، وعن

عمة لها لا تغفر لأحد أن يدخن سيجارة فـي وجودهـا لأن فعلته استهانة بالنار المقدسة، وعن أخيها الذي رزق طفـلا وسماه «رياض»: «أليس الاسم عربيا؟». ونتوقـف مـرتين لإصلاح عطل في السيارة، ومرة لتنـاول عشـاء سـريع. وتضحك السيدة البدينة العاملة بالمقهى وهي تسـألنا: «هـل أضع لكم بصلا في الهامبورغور؟» ثم تستطرد وقد اختلطت نبرتها الضاحكة بشيء من شكوى: «أنا أحب البصل كثيـرا وزوجي لا يحبه، فلا آكله إلا حين يسافر!» ونودع المـرأة ونعود إلى مركوبتنا الألمانية التي تحملنا هـذه المـرة دون خذلان إلى أمهرست فنصلها بعد انتصاف الليل بساعتين.

فتحت التلفزيون وجلست على الأرض مسندة ظهـري إلى الحائط المواجه أشاهد برنامج تحقيقات تلفزيونية. انتهت فقرة وبدأت أخرى تحت عنـوان «احـذروا مـن تجـارة الأطفال!» قال المذيع:

- هناك عائلات كثيرة حرمـت مـن الأطفـال وهـي تستعيض عن ذلك بالتبني. ولدينا هنا حالة مـن هـذا النوع، وإن كانت تتفرد بملابسات خاصـة. فالآنسـة «ام» من ولاية فرجينيا وجدت نفسها حبلى ولم تكـن

راغبة في الإنجاب ولا في تحمـل مسـئولية طفـل، خاصة وأنها ليست متزوجة، ولقد جاءها عرض بتبني الطفل بعد ولادته من قبل أسرة ثرية مـن نيويـورك تريد طفلا أبيض من صاب يهودي. ولما كانت تلـك المواصفات تنطبق على الآنسة «ام» فقد تم الاتفاق من خلال محام على التالي:

أ – يقوم المتبني بتحمل كافة نفقات الآنسة «ام» طوال فتـرة الحمل والوضع.

ب- تقوم الأم بعد الولادة مباشرة بتسليم الوليد.

ج- وفي المقابل يدفع لها مبلغ محدد من المال يتفق عليه.

- يا مريد تعال.

انتقل المذيع لمقابلة المرأة في بيتها بولاية فرجينيا، فتاة لم تتجاوز الخامسة والعشرين على الأرجح. لا يبدو عليهـا ذكاء أو تميز خاص، ولا تبدو غبية أيضا. سألها:

- لماذا لم تريدي الطفل، لأنك لست متزوجة؟

- ليس تماما. لم أكن مستعدة لتحمل مسئولية طفل، نمط حياتي لا يسمح بوجود طفل!

- وما الذي حدث، أقصد حين وقعت هذا الاتفاق؟

- أخذوني إلى مكان في فلوريدا وجدت فيه فتيـات فـي مثل وضعي، حوامل ولا يردن أطفالا وقررن إعطـاء أطفالهن للتبني.
- مقابل مبالغ محددة؟
- نعم ومقابل دفع مصـاريف الرعايـة أثنـاء الحمـل والوضع.
- ثم ماذا حدث؟

جاء مريد وبيده صينية عليها كنكة القهـوة وفنجـانين.

قلت له:

- اجلس بسرعة، هذه المرأة باعت طفلها وهو لا يـزال ببطنها!
- انتقلت إلى نيويورك للولادة بأحد مستشـفياتها. بعـد الولادة بيوم كان علي أن أسلم الطفـل بيـدي حسـب شروط العقد المكتوب.
- هل رأيت الطفل؟
- لا، لم يسمحوا لي بذلك. كان علي أن أسـلمه بنفسـي ولذلك فلقد غطوه وقمت بتسليمه للمتبني فـي وجـود المحامي. والآن بعد عام...

- لم تشعري بانشغال أو قلق أو اشتياق للطفل؟
- ليس بشكل خاص، فأنا لم أره ولم أرتبط به.
- نعم، ما الذي حدث بعد عام؟
- اتصل بي المحامي وقال إن الأسرة المتبنية قد اكتشفت أن استجابات الطفل غير عادية وأنه قد يكون متخلفـا وهم لا يريدونه. ولا أدري طبعا مدى صحة كلامهـم لكن العقد لا ينص على أي مسألة من هذا النوع.
- هذا يعني إنك لا زلت غير راغبة في الطفل؟
- قلت لك إنه لا مكان لطفل في حياتي. ثم إنني لـم أر هذا الطفل وقد لا يكون ابني.. ثم إن هناك عقدا...

قال مريد وهو يقوم ليقف بجوار النافذة:

- الحلم الأمريكي الفريد!

ولكني لم أقل شيئا. بقيت في مكاني محدقة في شاشـة التلفزيون وقد توقفت عن متابعة الفقرات التالية للبرنـامج... كنت أفكر فيما حل بطيبة في الأسطورة اليونانية، قتل أوديب أباه وعاشر أمه دون أن يعلم فانتشر الطـاعون فـي طيبـة وأصاب العقم أهلها. وهذه المرأة وقعت عقدا قانونيا ملزمـا سلمت بمقتضاه ابنها وقبضت حقه بالمال المصروف. فـأي

لعنة سوف تسري؟ أوديب يفقأ عينيه وهذه الشقراء المتزينـة مختوم على قلبها وعينيها.

قلت وأنا أقوم إلى دورة المياه:

- إنه الختم الأمريكي الفريد!

* * *

قال أستاذي وهو يبتسم: «الآن أعطيني الورقة» وكان ذلك إيذانا بانتهاء الامتحان. مددت له يدي بالورقة المطبوعة التي تحمل عنوان الرسالة واسمي ثم أسماء أعضـاء لجنـة الامتحان الثلاثة مسبوقة بعبارة «أقرت شكلا ومضمونا» وقع الورقة ومررها على العضوين الآخرين ثم قال وهو يتكـئ بيديه على المائدة التي أمامه لينهض:

- تعالي هنا الآن!

ثم بمزيج من السلطة والحنان الأبوي:

- إنك بنت جيدة، لقد أحسنت عملا!

وقبلني، ثم قبلني الآخرون وهنئـوني. ولكـن الأسـتاذ بعبارته !you're a good girl كان قد وضع اللحظة فـي سياق أليف يختلف عن السياق التقليدي لمنح درجة أكاديميـة كانت تلك البساطة تشبهه تماما كمناداة طلاب لـه «بسـيد»

اختصارا لسيدي، ودورات التنس التي كان يشـترك معهـم فيها، والحذاء الكاوتشوك الذي درج على لبسه.

ورحت ألملم أوراقي استعدادا للمغـادرة، كـان الجـو صحوا مائلا للحرارة وتغريد العصافير يملأ أرجاء المكـان. قلت لمايكل وأنا أضحك:

- الآن تستطيع أن تقود سيارتك بما يحلو لك من سرعة.

كان الأمر سيكون مؤسفا فعلا لو مت في حادث سيارة وأنا في طريقي لمناقشة الدكتوراه!.

غادرنا بيت أستاذي كما جئنا، مايكل في مقعـد القيـادة ومريد في الكرسي المجاور وأنا أجلس في وضـع نصـف مريح على ركبتي مريد. وفي أقل من ثلث ساعة كنا علـى مشارف أمهرست، ولكن مايكـل تجاوزهـا إلـى الـتلال المحيطة.

- إلى أين؟

- إلى أماكن شديدة الروعة!

وراح يقود سيارته في طريق جبلية متعرجـة وضـيقة تكاد أشعة الشمس لا تنفذ إليها من كثافـة الأشـجار فيهـا. أشجار عالية كأن لا نهاية لها تجاورها شجيرات ونباتـات لا

تعلو عن الأرض أكثر من شبرين، أشجار لها جذوع رفيعـة وناعمة، وأخرى جذوعها خشنة ومتغضنة يبدو على البعد ما فيها من شقوق، أشجار أوراقها عريضة بحجم كفين متصلين وأخرى لها أوراق صغيرة. يتعدد أخضـر الشـجر وبنـي جذوعها، تتشابك الألوان وتتصل. وثلاثتنا نتابع المشهد فـي صمت أقطعه بقولي:

- ليتني أعرف أسماء كل هذه الأشجار.

ويقول مايكل:

- في جامايكا الخضرة أكثف من ذلك.

ثم نعود ثانية للصمت وأشعر بشيء من إنهـاك، فهـل أبدو كما في تلك الصورة في جامعة القاهرة، بعد إعلان لجنة الامتحان منحي درجة الماجستير؟ كنت قد خلعـت الـرداء الجامعي الأسود الذي قدمت به الامتحان حسب التقليد المتبع وقفت بين أصحابي وزملائي لكي تلتقط لنا صـورة. ولـم تُخْفِ ابتسامتي العريضة – المقصودة للصـورة – الإنهـاك الواضح على وجهي. خرجنا من باب كلية الآداب نستقبل ليل القاهرة وطقسها الخريفي في صخب محبب. كانـت سـاعة الجامعة تدق الحادية عشرة. هل هي الطقوسية في المشهد أم

ألفة الصحاب وتجمعهم للمشاركة، أم أنه ارتياح المرأة لإنجاز حلمها القديم بالانتماء للمكان، أم أنها جميعا تضفي على اللحظة بهجة المناسبة السعيدة؟

ومايكل لا زال يتوغل في الطرق الجبلية بدون إسراع هذه المرة، وأنا أجلس على ركبتي مريد تلتقي عينانا فيربت على كتفي ويهمس:

- مبروك!

فابتسم له وأتذكر أن أبي ظل حتى وأنا على وشك الانتهاء من دراستي الثانوية موزعا بين رفضه لالتحاقي بالجامعة وحماسه لتفوقي الدراسي ورغبته في الاستمرار في تعليمي. قلت ضاحكة:

- قبل دخولي الجامعة بعام واحد كان أبي يقول: إن من يدخل ابنته الجامعة حمار!

قال مايكل بجدية مدعاة:

- أتفق مع أبيك في هذا الرأي!

ضحكنا وبدا كأن هذا الضحك وضع حدا بين الصمت الذي لفنا ونحن نتابع الأخضر في التلال والثرثرة الصاخبة التي أعقبتها.

أوصلنا مايكل إلى البيت وذهب. قال مريد:

- انتظري هنا، سأصعد لإحضار آلة التصوير، سـألتقط لك صورة!

وحين عاد مشرعا آلة التصوير الصغيرة في يده قلـت ضاحكة:

- صورة تذكارية!

- بمناسبة حصولك على الشهادة الكبيرة!

- كانت ستي فاطمة أم أبي تدعو بعد الصلاة طبعا ليس بالشهادة الكبيرة! كانت تقول: «روحي يا رضوى يـا بنتي إلهي يرزقك بعريس الغفلة والباب بلا قفلة!».

وقفت أمام مريد الذي راح يلتقط لي عدة صور. قبـل شهر كنت قد أتممت عامي التاسع والعشرين. لا بأس، قلـت لنفسي وأن أفكر في الكلمات الساخرة لأسـتاذ الرياضـيات الذي كان يعملنا بمدرسة "الليسيه": «أقصى طموح الواحـدة منكن – لو أفلحت – هو الحصول على شهادة الإعدادية لكي تحملها معها إلى بيت الزوجية فتقول لنفسها بارتيـاح: أنـا امرأة متعلمة!» ابتسمت لآلة التصوير ولفكرة أنني وأنا أعدو خائفة من كلمات الأستاذ والحراماك المنتظر قد نجحت مـرة

أخرى، قفز حاجز وأفلت. وفي الصور التي استلمناها بعـد أسبوع كانت هناك امرأة صغيرة تميل للنحافة، يصل شعرها الأسود إلى الكتفين، تلبس قميصا بنيا وجونلة سكرية اللـون، لا تخفي الابتسامة التي تعلو شفتيها. إن بالوجه شـيئا مـن شحوب وتعب. فهل كان ذلك من أثر الامتحان أم أنه الإنهاك الذي يعقب قفزة كبيرة، يستجمع المتسابق لها كل ما أوتيـه من قوة؟

١٣

- إنه الرابع من يوليه، يوم عيد الاستقلال الأمريكي!
- وبداية الاحتفالات بمرور مائتي عـام علـى إعـلان الاستقلال.

مررنا بواجهات المحلات التجاريـة المزينـة بـأعلام الأمريكية. ابتعنا الجرائد وجلسنا على مقعـد خشـبي فـي الحديقة المجاورة لكلية أمهرست لمطالعتهـا، وكـان الجـو صيفيا يميل إلى الحرارة.

قلت لمريد وقد بهرتني بلاغة وجرأة ما قرأ:

- اسمع يا مريد، هذا خطاب لفريدريك دوغلاس القائـد الأفرو – أمريكي الذي ولد عبدا وعلم نفسه واشـترى حريته وصار مدافعا عن تحرير العبيد في منتصـف القرن الماضي، تعيد « النيويـورك تـايمز » نشـر مقتطفات منه. والخطاب الذي ألقـي فـي روشيسـتر بنيويورك في ٥ يوليه ١٨٥٢ بعنوان: «الرابـع مـن يوليه ومعناه للزنجي الأمريكي » بعد المـدخل الـذي

يسأل دوغلاس فيه الحاضرين الذين كانوا من البـيض طبعا: «لماذا طلبتهم مني أن أتحدث إليكم اليوم؟ ومـا شأني وشأن الذي أمثلهم بيوم اسـتقلالكم الـوطني؟» يقول:

إن عيدكم المجيد هذا لا يشملني، واسـتقلالكم الرفيـع يكشف المسافة الشاسعة التي تفصلنا. النعم التي ترفلون اليوم فيها لا نشارككم إياها. التركة الغنية التي خلفها لكم آبـاؤكم تركة العدالة والحرية والرخاء والاستقلال، تشـتركون فيهـا ولا أشترك. الشمس التي أتت لكم بالضوء والبلسـم الشـافي أتت لي بالسياط والموت. وهذا الرابع من يوليه يومكم وليس يومي، فلكم أن تبتهجوا وعلي أن أحزن. فأن تجروا رجـلا مقيدا إلى داخل معبد للحرية يتلألأ مهابة ونورا وتطلبوا منه مشاركتكم أهازيج الفرح ليس سوى تهكم لاإنساني وسـخرية فاجرة». ثم يمضي قـائلا: «إن موضـوعي إذن، إخـواني المواطنين، هو العبودية في أمريكا. وسوف أتناول هذا اليوم وخصائصه الشائعة، منظور عبد، وإنني إذ أقف هنا متوحدا مع العبد الأمريكي، حاملا لمظالمه، أعلن أنه يوم يكشف لـه أكثر من كل الأيام الأخرى عن مدى الظلم أسود ممـا همـا

عليه في هذا اليوم الرابع من يوليه. فإن ننظـر لإعلانـات الماضي أو ادعاءات الحاضر نجد مسلك هذه الأمـة مثيـرا للاشمئزاز مقززا. إن أمريكا زائفة في ماضيها. زائفة فـي حاضرها، وقد آلت على نفسا أن تكون زائفة في مسـتقبلها كذلك».

- فلنحتفظ بهذا العدد من « النيويـورك تـايمز » هـذا الخطاب وثيقة. ربما النسخة الكاملـة منـه بالمكتبـة وصوريها لنا للاحتفاظ به. أكملي!

«ألا يثير الاستغراب أنه، ونحن نحرث ونزرع ونحصد ونستخدم الآلات ونبني البيوت ونشيد الجسور ونصنع السفن ونشتغل في الصفيح والحديد والنحاس والفضة والذهب، إنـه ونحن نقرأ ونكتـب ونحسـب ونعمـل مـوظفين وتجـارا وسكرتيرين، وبيننا المحامون والأطباء والوعاظ والشـعراء والمؤلفون والمحررون والخطباء والمعلمون، وإنـه ونحـن نسهم في شتى النشاطات التي يمارسها الآخرون، نسـتخرج الذهب من كاليفورنيا، نصيد الحيتان من المحـيط الهـادي، نطعم الخراف والأبقار في التلال، نحيـا ونتحـرك ونفعـل ونفكر ونخطط ونعيش في أسر كأزواج وزوجات وأطفـال،

وفوق كل ذلك نعترف برب المسيحية ونعبده ونتطلع بالأمل إلى الحياة الدنيا وإلى الخلود مـا بعـد القبـر – ألا يثيـر الاستغراب أن يطلب منا أن نثبت أننا بشر!».

« عيد استقلالكم... ماذا يعني للعبد الأمريكي؟ أجيـب إنه يوم يكشف له أكثر من كل الأيام الأخرى عن مدى الظلم الفظيع والقسوة الواقعين عليه. إن اسـتقلالكم بالنسـب لـه استقلال زائف، حريتكم التي تفخرون بهـا تحلـل مـنحط، مجدكم الوطني عنجهية متورمة، أصوات ابتهاجكم أصـوات فارغة لا قلب لها، إدانتكم للطغاة وقاحة تلـبس درعـا مـن صفيح، صيحات الحرية والمساواة التي تطلقونهـا سـخرية جوفاء، صلواتكم وابتهالاتكم، عظاتكم وأعياد شكركم بكل ما فيها من استعراض ديني ليست بالنسبة له سـوى جعجعـة وزيف وخداع وفسق ونفاق، إنها ليست سوى الغلالة الرقيقة التي تخفي جرائمكم الكفيلة بإلحاق العار بأمة من البرابـرة. فليس هناك أمة على وجه الأرض تقتـرف أعمـالا دمويـة وصادمة كالتي يقوم بها شعب الولايات المتحـدة فـي هـذه الساعة».

« اذهبوا أينما استطعتم، ابحثوا حيثما أردتم، تنقلوا بين كل الممالك والنظم الاستبدادية في العالم القديم، سافروا عبر أمريكا الجنوبية وابحثوا في كل ظلمة، وعندما تجدون أكثرها فظاعة ضعوا حقائقكم بجانب الأعمال اليومية لهـذه الأمـة، وقولوا معي إنه في البربرية المقززة والنفاق الفاجر تتربـع أمريكا على العرش بلا منافس! ».

- وشهد شاهد من أهلها!

- بل قل شهد ملدوغ من جحرها! ولم أقرأ لـك سـوى جزء من المقتطفات المنشورة!

طويت نسخة « النيويورك تايمز » وقمنا متجهين إلـى مقهى قريب سرنا في شارع نورث بليزنت، الشارع الرئيسي بالبلدة، مرورا بالفرست ناشيونال بنك أوف أمهرست المواجه لفندق اللورد جيفري ومخفر الشرطة ثـم تجاوزنـا محـل «مأكولات لويز» والكنيسة الكبيرة ودفعنـا بـاب المقهـى الزجاجي ودخلنا.

- الطريف يا مريد أن الصفحة نفسها في الجريدة تحمل على أحد وجهيها خطاب دوغلاس وعلى الوجه الآخر صورة للنسخة الأصلية من إعلان الاستقلال.

دفعت له «بالنيويورك تايمز» وأنا أتلو من الذاكرة كطفلة تلقي قطعة محفوظات العبارة الأشهر بالإعلان: « إننـا نؤمن أن هذه الحقائق بينة لا جدال فيها، إن البشر جميعا قد خلقوا سواسية، وأن الخالق قد وهبهم من الحقوق مـا لا تفريط فيه، من بين هذه الحقـوق الحيـاة والحريـة والسعي من أجل السعادة».

وأكمل مريد يقرأ من الجريدة:

- « وحفاظا على هذه الحقوق تقام بين الناس الحكومات التي تستمد سلطاتها من موافقة المحكـومين، وحـين تتنكر الحكومة لهذه الأهداف بالنيل منها فمـن حـق الشعب أن يغيرها ويسقطها، ويقـيم حكومـة جديـدة ينشئها وينظم سلطاتها على الأسس التي يـرى أنهـا كفيلة بضمان سلامته وسعادته».

ثم استغرق مريد في قراءة صامتة لباقي الوثيقـة ولـم يلتفت إلى أن النادلة وضعت أمامنا القهوة التي طلبناها. نبهته لذلك فأخذ يشرب قهوته ويتابع القراءة في صمت. وأفكر في أن توماس جيفرسون الذي صاغ إعـلان الاسـتقلال عـام ١٧٧٦ كان يمتلك عبيدا، وأن إبرهام لينكولن صاحب إعلان

تحرير العبيد سنة ١٨٦٣ قد قال مرة: « أنا لا أهـدف إلـى إرساء المساواة الاجتماعية بين البيض والسـود. إن هنـاك فارقا طبيعيا بين الاثنين، وأرجح أن هذا الفارق سوف يحول دائما دون أن يحيا الاثنان معا على قدم المسـاواة الكاملـة» وأرشف قهوتي الأمريكية وأتساءل إن كانت محاكمتي لهـذه الرموز الأمريكية تفتقد الموضوعية المرتكزة إلـى النسـبية التاريخية؟ لقد شكل هؤلاء الرجال في عصرهم قـوة دفـع للحركة التاريخية. قادوا القطار باقتدار، ولكن ما الذي يقوله فحم المحرقة؟ «إن البشر جميعا قد خُلقـوا سواسـية» هنـا المطب والمفارقة، فهل قال أحد منهم إن «هـؤلاء الهمـج» سكان البلاد الأصليين أو أولئك «السود كالشيطان» من جنس البشر، وهذا النص الذي يعلن استقلال المستعمرات الأمريكية الثلاث عشرة يخص من أهل البلاد «البشر» أي مستوطنيها البيض! ولكن الكلمة مشاع فمن يجرؤ على أن يحبس المطر أو أن يحول بين صوت العاصفة وآذان السجناء، من يجرؤ؟ وينحني العجوز الأبدي على كتابه يسجل أن أول من سـقط من شهداء الثورة في مذبحة بوسـطون سـنة ١٧٧٠ هـو كريسبوس أتوكس الذي تختلط في عروقه الدماء الإفريقيـة

بالدماء الهندية الحمراء. وتأتي الكلمة المشـاع للعبيـد فـي المزارع الجنوبية، تدخل تحت جنح الليل إلـيهم، تشـاركهم الهمس في الفراش فيسارعون إلى الانضمام إلى تلك الثـورة التي تعلن أن البشر سواسية. تسمح قيادة الثـورة بالتحـاق الراغبين من العبيد إلى صفوفها على أن تكافئهم بعد النصر بإعتاقهم. ولكن هذه الدنيا مصالح، وأصحاب المـزارع فـي الجنوب يريدون الحرية لهم وليس لعبيدهم، فيضغطون على الجنرال واشنطون الذي يستجيب لهم ويقرر ضـمانا لـولاء الولايات الجنوبية أن ما ينطبق على الأبيض لا ينطبق علـى العبد لأنه مملوك ولم يسمح بعد ذلك لأي عبد بالاشتراك في جيش الثورة إلا إذا كان زنجيا حرا سبق لـه الخدمـة فـي الجيش.

طوى مريد الجريدة ودفعنا حساب القهوة وغادرنا. فـي الطريق واجهتنا الأعلام الأمريكية المرفرفة، قلت:

- أتساءل أحيانا إن كان بمقدوري أن أنظر إلى أمريكـا بعين موضوعية. وكيف للملدوغ أن يتحـدث بهـدوء معملي عن خواص العقرب؟ وأين أذهب بذلك القهـر الخاص بإنسان العالم الثالث الذي ازداد حدة بـاقترابي

من تجربة العنف الاستعماري الآثم الذي تأسست فيه التجربة؟ وحين تستوقفني كما يحدث أحيانا مظاهر العمران الهائل وبعض المنجزات يدق في ذاكرتي ناقوس صغير حزين، عبارة قالها أحد القادة الهنود الذين شهدوا مجزرة ووندد في سنة ١٨٩٠ التي حسمت الصراع لعشرات السنين بعد ذلك بين المستوطنين الأوروبيين والسكان الأصليين. قال: «في لحظتها لم أكن أعرف كم من الأشياء قد انتهى. وعندما أنظر خلفي الآن من فوق تلة شيخوختي يظل بإمكاني رؤية النساء والأطفال المذبوحين مكومين ومتناثرين... بالوضوح نفسه الذي رأيتهم به بعيني شبابي، وأستطيع أن أرى أن شيئا آخر قد مات هناك في الطين والدماء ودفنته العاصفة الثلجية. مات حلم شعب. كان حلما جميلا. انكسر عقد الأمة وانفطر ولم يبق له من مركز. ماتت الشجرة المقدسة».

١٤

- الرسالة في التجليد وما إن أستلمها حتى أرسـل لكـم بالبريد بالنسخ الثلاث المقررة. أريـد المغـادرة بعـد أسبوعين أو ثلاثة على الأكثر فأرجو الاتصال بشركة الطيران التي تتعاملون معها، لكي تصرف لنا بطاقتي سفر على حساب البعثات وترسلها لنا بالبريد، وأنا من ناحيتي سوف أتصل بها لحجز موعد السفر من مطار برادلي إلى مطار كنيدي بنيويورك ثم إلـى القـاهرة مرورا بروما.

كنت أتحدث تلفونيا إلى مدير مكتبنا الثقافي بواشنطون. جاءني صوته في الطرف الآخر:

- أولا مبروك ومبروك ثانية لهذه السرعة القياسية فـي الحصول على الشهادة. ولكن لماذا تعجلـين العـودة هكذا، آمل أن يكون السبب خيرا!

- ا يبارك فيك، شكرا. كل ما في الأمر أنني أتيت إلى هنا لإنجاز عمل محدد وانتهيت منه وأريد العودة إلى

مصر. (ثم وأنا أضحك) يا دكتور الغربة وحشة وأنا عاوزة أروح بلادي!

ضحك وقال:

- يا دكتورة. أمرك!

وبدأنا نعد للمغادرة وذات صباح حمل مريد حقيبة السفر الزرقاء وحملت أنا حقيبة بنية أصغر واتجهنا بها إلى مكتب البريد المركزي بشارع نورث بليزنت على بعد خطوات من البيت. داخل المكتب فتحنا الحقيبتين المملوءتين بطرود بنية صغيرة. وكنا في اليومين السابقين قد قمنا بشراء عشرات الأظرف المقواة ووضعنا في كل منها عددا من الكتب ثم كتبنا عليها اسمي وعنواننا في القاهرة مضافا إليها كلمة مطبوعات بخط بارز. أعطانا موظف البريد كيسا كبيرا من القماش السميك لنضع الطرود فيه بعد أن نبهنا إلى ضرورة كتابة العنوان على كل مظروف على حدة. حمل الكيس ووضعه على الميزان الضخم خلف العارضة الخشبية ثم رفعه بكلتا يديه وأغلقه وختمه وعاد إلى مقعده وانحنى على دفتر الإيصالات الصغير قائلا: «أربعة وستون رطلا من المطبوعات!».

في مساء اليوم التالي كنا مدعوين إلى العشـاء ببيـت أستاذي. وكان قد حدد الموعد بعد الامتحان مباشرة، دعـاني أنا ومريد وأعضاء لجنة الامتحان وقـال بابتسـامة طيبـة: «حفل صغير تكريما للدكتورة الصغيرة، لا تنسـوا، سـوف أنتظركم في ١٣ يوليو القادم».

لم ننس تاريخ اليوم، والأرجح أننا لن ننساه، دق جرس التلفون قبل الظهر، مكالمة خارجية.

- أحدثك من بيت خالك. فهيم ابن خالك استشـهد فـي الشياح. وصل جثمانه وتم دفنه.

ويزداد وجه مريد امتقاعا ولا يقول شيئا. ويعيد السماعة إلى التلفون ونجلس في صمت، تلح التفاصيل الصغيرة فأرى الوجه الأسمر النحيل وآثار حرق قديم في الرقبـة وعينـي المراهق القلقتين وكتاب قواعد الإنجليزية الذي رحت أدرس له فيه عشية امتحان الثانوية العامة قبل عدة سـنوات، أرى الموت يحملها في منديله الأسود الكبيـر، يعقـده ويمضـي، يغيب في البعيد. ولا أحد منا ينطق. هل ننزل إلى الشـارع؟ هذه الغربة! هل نعود للبيت؟ هل نذهب إلى دعوة الأسـتاذ؟ تشتد الغربة أمام هذه المائدة المغطاة بمفرش أبيض، مريـد

يجلس منكمشا وصامتا. وتصيبه قشعريرة فيعطيه أستاذي سترة يلبسها. يأكل قليلا ثم يدخل إلى الحمام ويتقيأ ثم نرحل.

ونعد للسفر. ووكالات الأنباء تحمل أخبارا يومية عن حرب تستعر في لبنان يصورها الإعلام الأمريكي على أنها صراع بين مسلمين ومسيحيين، وخبرا عن موقف غير مسبوق للحكومة المصرية التي ترفض في مؤتمر دولي إدانة إسرائيل. ونعد للسفر. أستلم النسخ المجلدة من رسالتي أقدمها إلى الجهات المقررة. ثم أذهب إلى إدارة الجامعة لأطلب ما يثبت أنني حصلت على الدكتوراه وأعرف أن الشهادة الرسمية، الورقة المقواة المكتوبة بخط منمق وجميل، لا تمنح إلا مرتين في العام. أقول للموظف المختص:

- أرجو إرسال الشهادة بالبريد على عنواني في القاهرة. لا، لن أحضر حفل التخرج، فقط أريد ذلك الخطاب الذي يفيد أنني حصلت على الدرجة العلمية وأن الشهادة الرسمية سوف تمنح في سبتمبر.

بعد يومين أذهب لاستلام الخطاب وأشكره وأمضي.

١٥

غادرنا أمهرست صباح الخامس من أغسـطس ١٩٧٥، وكنا نحمل حقيبتي سفر والآلة الكاتبة الصغيرة التـي كنـت اشتريتها صباح ذلك السادس من أكتـوبر. رافقنـا بعـض أصدقائنا إلى مطار برادلي بهـارتفورد. ودعنـاهم وركبنـا الطائرة إلى نيويورك. وفي السابعة مساء أقلعت بنا طـائرة «بان أمريكان» إلى روما. أمضينا أسـبوعا فـي العاصـمة الإيطالية ثم سافرنا إلى القاهرة التي وصلناها مساء الثـاني عشر من أغسطس.

فـي الأسـبوع نفسـه وصـل إلـى القـاهرة أيضـا هنري كيسنجر وزير الخارجية الأمريكي لترتيب الأوضـاع داخل البيت المصري.

حين غادرت القاهرة قبـل عـامين كانـت العلاقـات الدبلوماسية بين مصر والولايات المتحدة مقطوعة منذ حرب ١٩٦٧. وكنت قد حصلت على تأشيرة الدخول من السـفارة الإسبانية القائمة برعاية المصالح الأمريكية في مصر. كمـا اقتضى سفري وسفر بعض الطلاب الآخرين الحصول على

توقيعات بالموافقة، بالإضافة إلى التوقيعات المعتادة لـرئيس القسم وعميد الكلية ومدير الجامعة، من وزارة التعليم العالي ووزارة الخارجية.

ولكن الزمان في عامين تغير. كان نيكسون قـد أتـى لزيارة مصر فقام المسئولون بطلاء واجهات البيـوت التـي سوف يمر عليها في طريقه إلى الإسكندرية (ساعتها كتبـت لي صديقتي في مرارة ساخرة تقول: «وربما فكرت الحكومة في أن تسوقنا جماعات إلى الحمامات حتى نصبح جـديرين بأن تقع عين السيد نيكسون علينا، أو لعلهم فكروا في طلائنا كما واجهات البيوت بالجير الأبيض!») وتبدي الكرم الشرقي في الحفاوة البالغة برجال الإدارة الأمريكيـة الـذين أخـذوا يتوافدون على مصر، يعقدون الصفقات ويتمتعون بعـروض لأشهر الراقصات على خلفية مـن أهـرام مصـر. كانـت الصداقة المصرية الأمريكية تتوطد وتسـير باتجـاه الـولاء المطلق، ولاء الحكومة المصرية طبعا!

بعد أقل من ثلاثة أسابيع من وصولنا، تم توقيع ما سمي بالاتفاقية الثانية لفصل القوات، التي ينص بندها الأول علـى

أن حكومتي مصر وإسرائيل قد اتفقتا على أن النزاع بينهمـا و في الشرق الأوسط لا يحل بالوسائل العسكرية.

وفي الحادي عشر من سبتمبر أغلقت إذاعـة المقاومـة الفلسطينية بالقاهرة حيث يعمل مريد. في الإعلام المصـري راحت تبرز نغمة عن سلام عربـي إسـرائيلي، وإسـرائيل تضرب الجنوب اللبناني، والحرب الأهلية اللبنانية تضـطرم وتستعر. سافر مريد للعمل في إذاعـة المقاومـة ببيـروت. وعدت لاستلام عملي كمدرسة فـي كليـة الآداب جامعـة عين شمس.

قال موظف الشئون الإدارية:

- يا دكتوره، أين الشهادة؟

أجبت:

- إن كنت تقصد الكرتونة فسيرسلونها لي بالبريد لأني لم أنتظر استلامها. معي هذا الخطاب من إدراة الجامعة، وأعتقد أنه يفي الغرض!

نظر لي الموظف مندهشا، سلمته الخطاب وذهبت.

رحت أتابع أخبار القصف اليومي بالعاصمة اللبنانيـة، كنت أحمل جنينا في بطني، أجهضت. صدر كتـاب جديـد

لمريد يضم كلماته في برنامج يومي درج على كتابته وإذاعته وكان اسم الكتاب «الأيام الصعبة». عاد مريد إلى القـاهرة. واصل الكتابة وواصلت العمل في الجامعة. حملـت ثانيـة. أعيد فتح الإذاعة ثم أغلقت مرة أخرى مساء الثامن عشر من نوفمبر ١٩٧٧، عشية زيارة السادات لإسرائيل. مساء اليوم التالي شاهدنا على شاشة التلفزيون مصافحة السادات لبـيجن ولغولدا مائير واستمعنا إلى الفرقـة الموسـيقية العسـكرية الإسرائيلية تعزف «الهاتكفاه» ونشيد مصر الوطني الذي لـم يكن قد تغير بعد من «وا زمان يا سلاحي» إلى «بـلادي بلادي». في الصباح التالي، وكان يوم عيد الأضحى، طرق بابنا خمسة من رجال الأمن، جاءوا لإلقاء القبض على مريد وترحيله من مصر. ودعتُه وأنا أحمل طفلنا الصغيرة تمـيم، كان عمره خمسة أشهر. ورغم تميم، وشجرتي الجوافة اللتين زرعهما مريد في حديقة الدار - وأدهشتنا سـرعة نموهمـا وإثمارهما - رغم ثقتي التي بلغت حد الإيمان بأن الأمور لن تستمر على ما هي عليه، فقد كنت أعرف أن الأيام القادمـة هي فعلا أيام صعبة.